الدين للحياة

الدين للحياة

منشورات المجلس العلمي الأعلى

أمير المومنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره اللّه

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

#

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين

تسعى وثيقة «**الدين للحياة**» إلى إبراز الصورة الجميلة للحياة الكريمة، تلك الحياة التي لم يخلقها الله تعالى عبثا، وإنما أرادها لتكون مزرعة للأعمال، والإنسان هو المزارع بعمله الذي هو مناط محاسبته وجوهر مسؤوليته، وذلك ما تشير إليه الآية الكريمة من سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾. وذلك بأن الله ما خلق الإنسان إلا لعبادته ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. ولكي تكون العبادة وفق مراد الله تعالى ومشيئته أرسل سبحانه رسله بالبينات، وأنزل معهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾. وكل ذلك ابتغاء حياة طيبة تؤدى فيها حقوق الله وحقوق العباد على السواء، وتنال فيها حسنات الدين والدنيا جميعا.

وسبيل تحصيل الحياة الطيبة أمران:

الأول: الإيمان بالله الواحد الأحد؛

الثاني: العمل الصالح الذي ينفع البلاد، وذلك ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، وذلك ما تذكر به وثيقة: «**الدين للحياة**»، وفي معنى مضمونها ما قاله بعض العارفين:

إذا ما الدِّينُ ضاع فلا حياة ... ولا دنيا لمن لم يُحْيِ دِينا

من رام الحياة بغير دينٍ ... فقد رضي الفَنَاء له قرينا

أولا:

الدين والتدين

1. الدين كامل والتدين اجتهاد

• ضرورة التمييز بين الدين والتدين

يخلط كثير من الناس بين الدين المنزل من عند الله تعالى، وهو الشرع الكامل، التام الكلمات، المطلقُ، المستوعب للزمان والمكان والإنسان؛ وبين التدين وهو اجتهادُ ومسؤوليةُ الإنسان في سعيه وكسبه من الدين، كما أنه جهد نسبي محدود زمانا ومكانا وإنسانا؛ ولهذا كان فيه التفاوت في التحصيل بحسب الجهد المبذول في تمثل قيم وأخلاق الدين. ولقد قرر القرآن الكريم هذا التفاوت، وحفز على اكتساب وتحصيل المراتب العليا فيه ما أمكن، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾(فاطر/ 32). فالظالم لنفسه: المتدين المُفرط في بعض الواجبات والمرتكب لبعض المخالفات. والمقتصد: المتدين القائم بالواجبات وإن لم يجتهد في المستحبات والمسنونات. والمسارع بالخيرات: المتدين الذي تجاوز المرتبتين بتحصيل الواجبات، وبالاجتهاد في الطاعات المستحبة والمسنونة، بحيث انعكست ثمارها على نفسه وفي سلوكه، فتوجه الى فعل الخيرات والمبرات بما تطيب وتصلح به حياة الناس. وقيل في المقتصد: الذي ينتفع هو بعلمه وعمله، وفي السابق بالخيرات: الذي يُعلم وينفع بذلك غيره؛ علما أن الجميع مشمول بوراثة الكتاب والاصطفاء من الله تعالى.

• الدين شرع مكتمل ومحفوظ

فالدين إذن شرع مكتمل تنزيلا من الله تعالى، لقوله عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة/4)، حيث يذهب جل المفسرين[1] إلى أن المراد بإكمال الدين وإتمام النعمة هنا هو: «إكمال للإيمان»، و«إكمال للفرائض والحلال والحرام»، و«إكمال الشرائع والأحكام، وإظهار دين الإسلام». فبعد «نزول أحكام الاعتقاد التي لا يسع المسلمين جهلها، وبعد تفاصيل أحكام قواعد الإسلام التي آخرها الحج...، وبعد بيان شرائع المعاملات وأصول النظام الإسلامي، كان بعد ذلك كله قد تم البيان المراد لله تعالى في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل/89). وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل/ 44)، بحيث صار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنة، كافيا في هدي الأمة في عبادتها ومعاملتها وسياستها في سائر عصورها، بحسب ما تدعو إليه حاجاتها»[2].

ولهذا كان من خصائص الدين حفظه من التزيد والنقصان ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر/9)؛ وشموله، واستيعابه، وإطلاقه؛ فمنه تُستمد المعاني والقيم والأحكام وهدايات الناس جميعا، لما يُصلح أحوالهم في الآجل والعاجل معا. فهو المرجع عند التنازع، والحَكَم عند الاختلاف كما تدل عليه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟

(1) انظر مثلا: تفسير الطبري وابن كثير والقرطبي للآية.

(2) انظر **التحرير والتنوير** لابن عاشور، ج 103/6، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة النشر 1984 م.

ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ٱلآخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَاوِيلًا﴾ (النساء/59)

• التدين كسب بحسب جهد الإنسان

وأما **التدين**، فكسب وتمثل لشعائر الدين، بحسب جهد الإنسان وطاقته، وكدحه وسعيه؛ ولهذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَاۖ﴾ (البقرة/286)؛ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَٰنِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ (النجم/39-40). ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَٰقِيهِۖ﴾ (الانشقاق/6).

فالقدرة أو الجهد البشري محدود ونسبي إذن وليس مطلقا؛ وتبعا لذلك يكون تدينه، أي تمثله لتعاليم الدين أحكاما وقيما، نسبيا ومحدودا؛ يعتريه الصواب والخطأ، والحسن والقبح، والمعروف والمنكر، والصلاح والفساد وغير ذلك. وكلما تحرى تزكية نفسه بحملها على الفضائل، كان إلى حقيقة الدين أقرب.

ولا يصح ههنا، أبدا، أن يُجعل التدين النسبي كفءاً أو معادلا للدين الكلي المطلق، فتدين الأفراد والجماعات تعتريه كل عوارض الضعف والقصور المشار إليها آنفا. وإن منشأ كثير من مظاهر الغلو والتشدد في التدين، إنما هو من توهم بعض المتدينين التماهيَ والتطابقَ مع الحقيقة الدينية أو حيازتها كاملة؛ حتى إنهم كلهم أو بعضهم، يُنصِّبون أنفسهم «مقامات» عليا يصدرون منها

أحكاما على غيرهم تبديعا وتفسيقا وتكفيرا، ويستثنون أنفسهم من ذلك؛ وهم لو تأملوا قليلا لوجدوا أنفسهم في مخالفات شرعية عدة؛ فلا أفعالهم ولا أقوالهم الظاهرة تبوئهم تلك المكانة، ولا هم على منهج السلف في التبليغ والهداية وحب الخير والنفع للناس.

إن ضربا من الكمال في التدين قد جعله الله تعالى خاصا بالرسل والانبياء فقط، وذلك لكونهم، من جهة، معصومين فيما يبلغون عن الله تعالى؛ ولكونهم، من جهة أخرى، محل اقتداء وتأس. فلقد قيل للنبي ﷺ فيمن تقدمه من الأنبياء والرسل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ (الأنعام/90). وقيل لنا فيه عليه الصلاة والسلام: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْاَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراًۗ﴾ (الأحزاب/21).

• تقويم الدين المستمر للتدين

إن الدين حريص على تقويم التدين باستمرار، ففي القرآن الكريم تحذير لأهل الكتاب، ولنا معهم، من الغلو في الدين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لاَ تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّۖ﴾ (المائدة/79). ومن الأحاديث الجامعة الموضحة لعلاقة الدين بالتدين والمحددة لمنهجية استمداد الثاني من الأول، قوله ﷺ: «**إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المُنْبَتَّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى**»[1]؛ فمتانة الدين هي من إحكام

(1) البيهقي في **السنن الكبرى**، كتاب الطهارة، باب القصد في العبادة والجهد في المداومة برقم 4931، و الشهاب في مسنده باب إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق برقم 1147.

آياته، وانضباط سننه، وشمول هديه، واستمرار حكمه، ولا يستمد المتدين من ذلك إلا بنسبة ومقدار، فإن غلا أرهق نفسه وحاد بها عن المنهج السوي. قال الإمام المناوي في شرحه للحديث: «**إن هذا الدين متين، أي: صلب شديد. فأوغلوا: أي سيروا فيه برفق من غير تكلف، ولا تحملوا على أنفسكم ما لا تطيقونه فتعجزوا وتتركوا العمل**».[1]

ومن ذلك نهيه عليه الصلاة والسلام كذلك عن الغلو والتنطع الذي يعتري بعض المتدينين، مثل قوله: «**إياكم والغلو في الدين، فإنما أُهلك من كان قبلكم الغلوُّ في الدين**»[2]، وقوله: «**هلك المتنطعون، (ثلاثا)**»[3]. وتقويمه لسلوك النفر الثلاثة في التبتل وعدم الزواج، والقيام وعدم النوم، والصيام وعدم الإفطار بقوله: «**إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[4]؛ حيث ردهم ﷺ إلى حالة الاعتدال في التدين حسب القدرة البشرية المحدودة، إذ لو استمروا على ما قرروا لعجزوا وانقطعوا. وكما نهى الشرع عن آفة الإفراط في التدين، نهى كذلك عن آفة التفريط فيه، بتجاوز حدوده والركون إلى الشهوات والغرائز، أو الكسب غير المشروع، أو ظلم الغير، أو إخلاف العهود والمواثيق، أو الكذب والغش

---

(1) انظره في: **فيض القدير**، ج 2/ 544، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الأولى 1356 هـ.

(2) النسائي كتاب **الحج**، باب التقاط الحصى برقم 4063، وابن ماجه كتاب **المناسك** باب قدر حصى الرمي برقم 3029.

(3) مسلم كتاب **العلم** باب هلك المتنطعون برقم 6955، و أبو داود كتاب **السنة** باب في لزوم السنة برقم 4610.

(4) البخاري كتاب **النكاح** باب الترغيب في النكاح برقم 4776، ومسلم كتاب **النكاح** باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم برقم 3469.

والزور...، وغير ذلك؛ فـ ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. (البقرة/229)

• من ثمرات التمييز بين الدين والتدين

- حمل الناس على الاجتهاد الدائم من أجل تحسين تدينهم، والارتقاء في سلم الطاعات والقربات درجات، عندما يدركون أنهم دائما محتاجون لهداية وإرشاد الدين.
- تمييزهم بين أصول الدين وكلياته الواجبة التحصيل ابتداء، ثم الاجتهاد في فروعه وجزئياته المكملة لها. فصون النفس وتزكيتها، وحفظ الأمن والنظام، وإقامة العدل والوفاء بالحقوق، والتعاون على البر والتقوى، وبذل الإحسان والمعروف...، كل ذلك من ثمرات الدين التي ينبغي تحصيلها في التدين الذي هو التزام فردي تصلح به الذات، والتزام جماعي تصلح به الحياة.
- كف كثير من المتدينين عن جعل سلوكياتهم وعاداتهم دينا يحاكمون إليها الناس، فيُبَدعون ويُفَسقون أو يُكفرون مخالفيهم. فيثيرون بذلك من الفتن والتشويش ما به يفسدون حقيقة الدين وإن ظنوا أنهم ينصرونها.
- معرفة المتدين أنه لا يكفيه مجرد الانتساب إلى الدين ظاهرا، حتى يكون متدينا حقا؛ بل لابد من تجلي حقيقة الإيمان والإسلام على قوله وفعله، فيكون محل أمن وسلم في معاملته مع الناس؛ ومصدر خير وعطاء، وعنصر بناء وتنمية في المجتمع.

- تحميل الدين أخطاء المتدينين، مما يؤدي إلى نعته بما لا يليق بناء على أحوالهم المؤسفة فيه، يكف عن ذلك وينظر إلى حقيقة الدين في رحمته وعدله، وسلمه وأمنه، وهدايته وإرشاده إلى الخير والمعروف، وسائر رعايته لحقوق الناس والإحسان إليهم والإنعام عليهم على اختلاف مللهم وألوانهم وأجناسهم، ما يدرك به عظمة الدين ونموذج الحياة التي يريدها للمتدينين الذين أخطأ معظمهم الطريق إليها.

2. المهام النبوية الأربع في التبليغ

يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ (الجمعة/2).

فالآية تقرر أن بعثة الرسول ﷺ كانت في قومه **الأميين** الذين لم يسبق فيهم كتاب ولا كانوا أمة موحدة. و«**منهم**» تجعل له نفس الصفة «الأمية»، ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ (الأعراف/159). بحيث «ينتفي عنه سوء الظن في تعليمه ما دعا إليه من الكتب التي قرأها والحِكم التي تلاها»[1]. فـ«منهم» إذن، تشمل نسبه الشريف فيهم، والتكلم بلسانهم، وعيش أحوالهم؛ كما تفيد «معنى الملازمة: أي رسولا لا يفارقهم، فليس مارا بهم كما يمر المرسل بمقالة (...) وكون الرسول منهم وكتابه بلغتهم، هو أعون على تلقي الإرشاد منه؛ إذ ينطق بلسانهم ويحملهم على ما يصلح أخلاقهم، ليكونوا حملة هذا الدين إلى غيرهم»[2].

فذلك ما يلزم كل مبلغ في وسطه، ومع جماعته وقومه؛ من القرب وحسن التواصل، وتحصيل الثقة والطمأنينة، والاطلاع على الأحوال؛ فهو أدعى

---

(1) **جامع الأحكام** للقرطبي ج 92/18، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية 1384 هـ – 1964 م . ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «**أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى**»؛ أي دعاء إبراهيم في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ (البقرة/129)، وبشارة عيسى بقدومه ﷺ في الإنجيل.

(2) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج 208/28، الدار التونسية، تونس، سنة النشر 1984 م. وانظر فيه الربط الجميل بين أسماء الله الحسنى الواردة في مطلع سورة الجمعة وهذه الآية بحيث جعل لكل اسم علاقة بمحور من التبليغ.

لسماعهم وقبولهم منه ما يبلغهم ويرشدهم إليه. وكما غير النبي ﷺ، بعد تمثله آيات الله تعالى في نفسه، حال قومه من الأمية والفرقة والتنابذ، إلى حال العلم والأمة والتلاحم؛ فكل مبلغ عنه مدعو إلى حسن التمثل في نفسه أولا، ليكون محل اتباع في تغيير حال الناس ثانيا، من سيء إلى حسن أو من حسن إلى أحسن؛ فلا يُغير إلا من تغير وصار نموذجا وقدوة في ذلك لغيره، بعدما أحسن الاقتداء والتأسي برسول الرحمة في اتباعه للآيات. وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد/11).

• المهام النبوية الأربع في التبليغ وتأهيل التدين

تقرر الآية الكريمة أيضا أربع مهام للنبي ﷺ، ولورثته من العلماء بعده، في البيان والتبليغ: **تلاوة الآيات**، و**التزكية**، و**تعليم الكتاب**، و**تعليم الحكمة**؛ بحيث يفضي بعضها إلى بعض ويسلم إليه؛ يقول ابن عاشور رابطا المعنى المتقدم بهذا المعنى: «وفي وصف الأمي بالتلاوة وتعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس ضرب من حسن الطباق، لأن المتعارف أن هذه مضادة للأمية. وابتُدِئَ بالتلاوة لأن أول تبليغ الدعوة بإبلاغ الوحي، وثُنِّيَ بالتزكية لأن ابتداء الدعوة بالتطهير من الرجس المعنوي وهو الشرك (...)، وعُقِّب بذكر تعليم الكتاب لأن الكتاب بعد إبلاغه إليهم تَبين لهم مقاصدُه ومعانيه (...)، وتعليم الحكمة هو غاية ذلك كله؛ لأن من تدبر القرآن وعمل به وفهم خفاياه نال الحكمة»[1].

(1) نفسه، ج 209/28.

أ ـ مهمة تلاوة الآيات: تفيد تلاوة الآيات القراءة والتتابع، من التلو. وهو ما يفيد بدوره تتابع التعريف والتعرُّف على مضامين هذه الآيات (حِكما وأحكاما وآدابا وغير ذلك)، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ (الأنفال/2). والمقصود بها تبليغ الناس كلام رَبهم وآياته المنزلة إليهم، وهي التي ستكون موضوع دعوة وبيان، وبها يكون تحصيل التعليم والتزكية والحكمة.

ب ـ مهمة التزكية: التزكية أصلها الطهارة والنماء، وقيل هي تطهير النفس من نزعات الشر والفساد، وتنمية فطرة الخير فيها. فالتزكية مضمونها التربية على محاسبة النفس ومراقبتها، والتحكم فيها بمنعها من إلحاق الضرر بالغير؛ والعمل على تخليتها من الشح والبخل، وتحليتها بالفضائل التي تنفع الذات والآخرين. ولهذا تعددت أنواع النفس وأحوالها: بين «نفس أمارة» بالسوء، و«نفس لوامة» على فعل السوء، و«نفس مطمئنة» بفعل الخير والعطاء. والمفلح هو من زكى نفسه بالإيمان والتقوى وجنبها التدسية والفجور، لقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس/7-10).

إن تزكية النفس على أساس الإيمان، والتقوى، والورع، والافتقار إلى الله تعالى، كلها قيم تدفع عنها، من جهة، هوى الاستغناء والطغيان والاستعلاء والكبر، وتخلصها من كثير من الآفات؛ وتؤهلها، من جهة أخرى، إلى نفع البلاد والعباد، والإحسان إلى الغير، والإسهام في نشر الخير والمعروف بين الناس.

فالتزكية إصلاح يتجذر في أعماق النفس، ومتجل على جوارح البدن بما ينفع الناس؛ ولهذا ورد النهي عن تزكية النفس ادعاء دون تحصيل ذلك إيمانا وعملا: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ (النجم/32).

ج ـ مهمة تعليم الكتاب: هو مستوى آخر يمتد إلى تحصيل معرفة بالكتاب، تعليما وتعلما لأحكامه وحكمه، ومبادئه وقيمه، وأخلاقه وآدابه، وكل ما يحتاجه المتدين والمبلغ منه. و**العلم** في القرآن مقرون **بالعمل**، وهو ثمرته وخلاصته. وتعليم الكتاب فيه مُدارسته كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ (آل عمران/79). وقيل «الرباني العالم بدين الرب الذي يعمل بعلمه، لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم»[1].

ولقد كان النبي ﷺ يخص أصحابه بجلسات علم وتعلم، يحرصون عليها، ولو تناوبا، للتفقه في الدين ومعرفة أحكامه. فلما غلب على ذلك الرجال دون النساء، سألنه تخصيص يوم لهن للعلم والتعلم. والتبليغ على أساس العلم والتعلم، يدرأ من غير شك آفة التبليغ عن جهل أو عن هوى وشبهة. وما أكثر المتصدين للتبليغ من أصحاب الأهواء والشبه، ممن وجب كف أذاهم عن الناس.

د ـ مهمة الحكمة: وهي أعمق المراتب وأرقاها، لأنها خلاصتها جميعا، عند من استطاع تحصيلها، أو قدر منها على الأقل. تَؤُول في أصلها اللغوي إلى المنع، وهي هنا تمنع صاحبها من الوقوع في الرذائل، وترتقي به

(1) انظر **الجامع لأحكام القرآن**، للقرطبي، ج 122/4، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية 1384هـ – 1964م.

في سلم الفضائل. هي العقل والتعقل، والفقه والتفقه، وإدراك الأمور على حقائقها إبصارا، والنظر في العواقب اعتبارا. ولقد تعددت تعريفات العلماء للحكمة وأقوالهم فيها، نذكر من ذلك:

- «الحكمة الفقه في الدين»[1].
- «الحكمة اسم لإحكام وضع الشيء موضعه»[2].
- «الحكمة فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي»[3].

وذكر بعض العلماء أن «الحكمة» تعني «**السنة**». وأيا كان فالحكمة مطلوبة في الكتاب والسنة معا، ولهذا كان التبليغ بمقتضاهما مستندا إليها بالأساس: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ (النحل/125).

• من ثمرات المهام الأربع في التبليغ

إن الذي حصل علما بآيات الكتاب، أو جلها، وتزكت نفسه بمراقبتها ومحاسبتها، وتأهل للقول والتصرف بحكمة؛ هو أولى من غيره للاضطلاع بمهمة التبليغ وإرشاد الناس ودعوتهم. فهذه المهام تُجنب المبلغ آفات الفشل والخطأ في التبليغ، كما تقدره على نفي الشبه والفتن عن الناس التي تحول دون تحققهم بما يُبلغ إليهم؛ كما تجعله حاضرا فيهم وبينهم تعرفا على أحوالهم،

(1) أثر مروي عن الإمام مالك.

(2) **منازل السائرين** لإسماعيل الهروي، ج 78/1، دار الكتب العلمية، بيروت.

(3) **مدارج السالكين** لابن القيم، 449/2، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1416هـ – 1996م.

وساعيا في جلب الخير والنفع لهم، وفاعلا إيجابيا في ترقية البلاد بحفظ مواردها ومقدراتها وبتجنب الخسائر الناجمة عن طيش سلوك البعض حينما ينعدم فيه أساس تزكية النفس والتصرف بالحكمة المطلوبة.

3. التدين السليم أساس الحياة الطيبة

لقد أباح الله تعالى لعباده حياة طيبة وجعلها من مشمولات نظام حياته وقيام نفسه وحفظ مصالحه، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَالطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلاَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف/30). وذلك بعد أن وضع التشريع الخاتم، المصدق والمهيمن على ما سبقه من تشريع الإصر والأغلال عن الناس وأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث كما يوضحه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلاُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرِيٰةِ وَالاِنجِيلِ يَاْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهيٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالاَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف/156-157).

والحياة الطيبة هنا كما قال المفسرون هي السعادة، وقيل توفيق الله العبد إلى الطاعات، وقيل الرزق الحلال، وقيل القناعة، وقيل هي انشراح الصدر وطمأنينة القلب، حتى ولو كان الإنسان في أشد بؤس، فإنه مطمئن القلب منشرح الصدر، مصداقا لقول النبي ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته**

سراء شكر فكان خيراً له»[1]. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: هي الجنة، وقاله الحسن، وقال: لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة[2].

وإذا كانت حقيقة المسلمين اليوم بعيدة عن الحياة الطيبة الموعودة، بما نراه من قلة الأمن وكثرة الخوف وعنت المعاش وسواد الجهل والفقر والمرض. وإذا كانت حالة التدين الحالية لا تفي بشرطي الحياة الطيبة (الإيمان والعمل الصالح). فإن حسن التدين هو السبيل الوحيد للوصول إلى هذه الحياة التي وعدنا بها الحق سبحانه، لأن تدين الأفراد والجماعات إنما هو اجتهاد في تطبيق تعاليم الدين وأسسه التي جاء بها، وتعتريه اليوم عوارض الضعف والقصور، وما مظاهر الغلو والتشدد في التدين، أو الضعف والانحلال إلا من توهم بعض المتدينين التماهي والتطابق مع الحقيقة الدينية أو حيازتها كاملة، واتباع البعض الآخر تأويل الجاهلين وتفسير الضالين. أما الكمال في التدين فقد جعله الله تعالى خاصا بالرسل والأنبياء لكونهم معصومين فيما يبلغون عن الله تعالى ومحل اقتداء وتأس. لقوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ (الأنعام/91).

فالدين إطار للقيم المطلوبة للحياة من خالق الحياة، والتدين السليم هو اتباع هذه القيم في السلوك، وإذا كان الإنسان كما خلق ورزق وجبل يسعى إلى حياة فيها أمن ومتعة، فإن هذه هي الحياة الطيبة التي وصفت في القرآن بالفلاح والفوز وسميت نجاة من الخسران.

---

(1) مسلم، **كتاب الزهد والرقائق**، باب المؤمن أمره كله خير، برقم 7692، وابن حبان، **كتاب الجنائز وما يتعلق بها مقدما أو مؤخرا**، باب ما جاء في الصبر وثواب الأمراض والأعراض، برقم 2896.

(2) تفسير القرطبي، ج 174/10، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية 1384هـ – 1964م.

وللوصول إلى هذه الغاية (التدين الصحيح) ولكي يحقق المسلم الحياة الطيبة التي وعد الله بها لابد له من أمور، منها:

أولا: الإيمان واليقين وحسن التوكل على الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجاً ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ إِنَّ ٱللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ (الطلاق/ 2-3)، قال ابن القيم رحمه الله: (في القلب شَعَثٌ لا يلمُّه إلا الإقبالُ على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأُنس بالله، وفيه حزن لا يُذهبه إلا السرورُ بمعرفته، وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أُعْطِي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا).[1]

ثانيا: الرضا بما قضى الله وقدر وقسم.

ثالثا: عبادة الله حق عبادته بفعل ما أمر والانتهاء عما نهى.

رابعا: التوازن والاعتدال والتوسط، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (سورة البقرة/142).

خامسا: المعنى والطموح والتخطيط الجيد للحياة، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ (المومنون/115).

(1) **مدارج السالكين**، 156/3، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1416هـ – 1996م.

سادسا: الإحسان إلى الخلق وحسن التواصل معهم، قال تعالى مخاطبا نبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، (سورة آل عمران/159). وقد أمر النبي ﷺ أصحابه بحسن الخلق وأرشدهم إليه؛ فعن أبى ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر، اتَّق الله حيثما كنتَ، وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حَسَن**».[1]

سابعا: العطاء وهو الفعل الذي يضم الجود والكرم، والصدقة والإيثار، إنه فعل البذل بما يحقق التكافل والتضامن والتعاضد.

فالكلام عن الحياة الطيبة كلام عن جودة الحياة بلغة العصر، ومن مفرداتها في القرآن: المودة، والرحمة، والسكينة، والمعروف، والمتعة، والزينة، والفرح بالله، والزواج، وتجنب الإسراف في الأكل والشرب... إلخ. وحياة الدين ليست كأي حياة، إذ سماها بارئها بالحياة الطيبة؛إنها وعد الله في الدنيا والآخرة حيث قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ فهي:

- حياة العيش الحلال البعيدة عن كل أشكال الحرام من ظلم وكذب وغش وخيانة الأمانة...

(1) أحمد في **مسند معاذ بن جبل**، برقم 21354، والترمذي، **كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ** باب معاشرة الناس، برقم 1987.

- حياة عيش الاعتدال، وعدم الإسراف؛
- حياة الطمأنينة وهي حالة قلبية تحصل بالذكر الذي هو حضور واستحضار لأصل الأمور كلها تبعا لإرادة الله ومسؤولية الإنسان عن أفعاله؛
- حياة المتعة لا حياة الحرمان، حياة جودة تحمي نفسيا من بؤس المتع الزائلة كالسراب في ارتباط بعقيدة «أن ما عند الله خير وأبقى»؛
- حياة اتقاء فتنة الأموال والأولاد.

ولا تطلب الحياة الطيبة إلا بالدين من خلال الآتي:

1. علاقة المؤمن بالله إيمانا يستمد منه معنى وجوده وقوة التزامه بالسلوك الذي أراده الله له حتى ينتفع به في الدنيا والآخرة.
2. العمل الصالح، وهو العمل الذي اشتمل ثلاثة أركان: **أولها** أن يكون على عقيدة صحيحة سالمةٍ مما قد يشوبها من الشرك، **ثانيها** أن يكون مُبتغًى به وجه الله، أي الإخلاص لله وأن يبتغى بهذا العمل رضا الله سبحانه وتعالى، **وثالثها** أن يكون هذا العمل الذي يتعبد به العبد ربه وفق ما نص عليه القرآن وما جاء به نبي الهدى سيدنا محمد ﷺ، وما أُثِر عنه من قول أو فعل أو تقرير، قال الفُضيل بن عياض: العمل الصالح هو ما كان مضمّنًا هذين الأصلين: أن يكون صوابًا، ما كان صوابًا على هدي رسول الله ﷺ، مُبتغًى به وجه الله.
3. اتباع الأحكام التي أراد الله أن يستمد منها الإنسان فهمه لعلاقته مع غيره من المخلوقات في هذا العالم الكوني والحيواني والبشري؛
4. التزام المؤمن بأداء حقوق الغير بمختلف درجاتها؛

5. التعبير عن شكر نعم الله تعالى بالعطاء والجود بجميع أنواع الإنفاق ودرجاته ابتداء من الكلمة الطيبة إلى البذل مما يملك من عمل أو وقت أو مال.

4. وازع القرآن ومهمة العلماء في التبليغ والبيان

إن من الوظائف الكبرى للنبوة التبليغ والبيان، اللذين بهما تكون هداية الإنسان، وبهما تتضح سبل السلام. ولهذا كان القرآن الكريم الأصل المرجع، والوازع الأول في تثبيت هذا الأمر ورسم معالمه الكبرى، والتي ينبغي أن يتبعها العلماء الذين ورثوا مهمة التبليغ عن الأنبياء؛ فالقرآن الكريم ﴿يَهْدِے لِلتِے هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء/9)، و﴿يَهْدِے بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ (المائدة/16).

ولهذا؛ فإن المقاصد الكبرى والمعاني السامية من هداية الناس إلى الحق والخير والعدل والسلم، وسائر الفضائل المقررة في هذا الوازع؛ تستلزم من الذي يبلغها ويبينها أن يجتهد على إعمال وازع القرآن في نفسه أولا، بتمثل أحكامه وآدابه ليصير محل حب واقتداء وإنصات واتباع من الغير.

إن إسعاد الناس في الحياة الدنيا، إنما يكون بتغيير أحوالهم فيها، من فساد إلى صلاح، ومن منكر إلى معروف، ومن تنازع وخصومة إلى مودة وتراحم، ومن كل غلو وإسراف إلى اعتدال واقتصاد. وهذه كلها سبل للسلام في الحياة الدنيا، كما أنها سبل للفلاح في الآخرة كذلك؛ وكل ذلك يقتضي من المبلغ أن يكون نموذجا فاعلا مؤثرا في النفوس، قادرا على الوصول إليها، متمثلا في ذلك مقام النبوة الرباني الذي صار أحب إلى الناس من أنفسهم، فكانوا عونا له في تغيير أحوالهم وإصلاح ما بهم.

• وازع القرآن ومنهج التبليغ والبيان

لقد اشتمل القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ على بيان منهج التبليغ والبيان، المستند إلى الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، والتيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، والمطاوعة عند الاختلاف، وغير ذلك مما يُرغب الناس في دين الله تعالى ولا ينفرهم منه؛ من سوء طباع بعض المبلغين، أو قسوتهم وشدتهم على الناس، والله بهم رؤوف رحيم، أو حملهم الناس على عادات واختيارات في التدين لم يلزمهم الله تعالى بها.

إن لوازع القرآن الكريم سلطانا معنويا على الناس، فهو كلام الله تعالى خالقهم ورازقهم ومن ثم الإيمان به على هذا الأساس؛ وهو الذي ﴿لاَّ يَاتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ (فصلت/42)، ومن ثم عدم الشك والارتياب فيه. وهو الذي سماه الله تعالى بأسماءٍ عدة، لكل منها معان ودلالات في البيان والتبليغ فهو: نور، وهدى، وفرقان، وروح، وموعظة، وبرهان، وشفاء وبصائر، وذكر، وحق...الخ؛ وكلها موضوعات للبيان والإرشاد. ولهذا فوازع القرآن مُسْتَمَدّ من داخله لا من خارجه، والتحقق به في نفس كل مبلغ وواعظ أدعى للتأثير به في السلوك الخارجي والعام.

إن في سنن الأنبياء وسنة خاتمهم سيدنا محمد ﷺ في سيرته العطرة، منهجا متكاملا في هذا البيان وما كان فيه من قيم التراحم والتواصل، بدءاً من دائرته المصغرة مع أهل بيته، إلى أصحابه الأخيار المنتجبين، إلى عموم جماعته وأمته، إلى الناس أجمعين. وما أحوجنا إلى تدبر سيرته عليه السلام، التي جمعت

خلاصات الهدى والبيان فضلا عن التبليغ الذي تعاقبت عليه رسالات الرسل قبله حتى بلغت تمامها وكمالها عنده.

إن وازع القرآن في تقريره منهج التبليغ والبيان يستند إلى أصول ومرتكزات عدة، نذكر منها:

- **أصل التوحيد**، المقتضي للإيمان بالله وإخلاص العبادة له، والتحرر مما سواه من شبهات الفكر وشهوات البدن.
- **أصل تزكية النفس**، التي سواها الله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس/8-10)، حتى تكون نموذجا في الاتباع والتغيير.
- **أصل العمل الصالح**، الذي يعكس حسن المعاملة بين الناس والحضور المؤثر فيهم.
- **أصل الجزاء في الحياة الأخرى**، ثوابا للمطيعين وعقابا للعاصين؛ حيث لهذا الوازع من الأثر العظيم على النفس ما لا يكاد يكون سواه. إذ به تصلح حياة الناس، ويستقيم سلوكهم طمعا في الثواب؛ وبه يكفون الأذى عن بعضهم خوفا من العقاب.

• التبليغ في إطار ثوابت الأمة وثمرات الوحدة والنظام

يشترط في المبلغ أن يكون وفيا لثوابت واختيارات الأمة التي جرى بها وعلى أساسها العمل منذ قرون، فكانت بذلك عنصر أمن ووحدة، واستقرار

وانسجام، عصمت هذه الأمة من كثير من المحن والفتن التي مر بها ولا يزال غيرها من الأمم.

لقد انتشرت في ربوع العالم الإسلامي اختيارات مذهبية متعددة، في الفقه والعقيدة والسلوك والسياسة، وكان من توفيق الله لهذه الأمة أن تختار أوسطها وأجمعها وأكثرها مرونة ورعاية للمصالح، وجعلت على رأسها إمارة المومنين تحميها وتصونها من تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين.

إن من وازع القرآن طاعة الله ورسوله وأولي الأمر: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء/59). وإن نجاح مهمة التبليغ في حفظ الأمن والاستقرار والوحدة والانسجام، الذي في ظله يحيا الناس حياتهم الطيبة، ويسهمون بوعيهم الوطني في تنمية البلاد وترقيتها، ويسود حس التعاون والتضامن فيما بينهم؛ إنما تكون في الاستمساك بهذه الأصول التي تُدرأ بها كثير من الفتن والشبه والأهواء. وكما أن المبلغ نائب عن رسول الله ﷺ في البيان الشرعي، فهو نائب كذلك عن الإمامة العظمى في التبليغ وحفظ الأمن والنظام.

إن المبلغ بوازع القرآن ينبغي أن يستشعر أن من مقتضيات وثمار هذا الوازع، نهي النفس عن هواها وعن نوازع الشح والبخل والشر فيها، بردها إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها، وبحملها على مكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال، التي بها يتغير واقعهم من حال إلى حال؛ وأن يكون هذا المبلغ قدوة ونموذجا في ذلك لغيره، وهذه أهم مرتكزات الحياة الطيبة المستندة إلى الذكر الدائم لله تعالى، والمستحضرة لرقابته الدائمة كذلك، فبهما يكون

التقويم والتغيير المستمران. وأما من أعرض عن ذلك فليس له إلا ما قرره وازع القرآن الكريم نفسه: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ (طه/124).

5. الغاية من الخلق

إن أهم ما يجب على الإنسان أن يكون على بصيرة منه أن الله تعالى ما خلقه إلا لغاية عبادته والخضوع له، وهو الغني عن العالمين الذي أحاطت قدرته بجميع الخلق. قال سبحانه وتعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ (الذاريات/56-57). أي «إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم»[1]. لذلك كانت العبادة روح الرسالات السماوية المنزلة، فما من نبي إلا أمر قومه بإفراده عز وجل بالعبادة. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ يُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء/25).

وهو المعنى ذاته الذي أشار إليه النبي الكريم بقوله لمعاذ بن جبل ﷺ: «**يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله**». قال معاذ: قلت: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا**»[2].

• العبادة برنامج تدبير حياة الإنسان

إن العبادة –بما هي برنامج تدبير حياة الإنسان بما يسعده في الأولى والأخرى– هي مطلق الخضوع لله تعالى وتمام محبته، فهو وحده سبحانه وتعالى المستحق لها بما يتصف به من مطلق الكمال والجلال والجمال.

---

(1) **تفسير القرآن العظيم**، ج 425/7، لابن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1420هـ – 1999م.

(2) البخاري، **كتاب الجهاد والسير**، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى التوحيد، برقم 6938، ومسلم، **كتاب الإيمان**، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه، برقم 153.

وهي لا تقتصر على أركان الإسلام فحسب، وإنما تشمل كل فعل خير يقصد به التقرب إلى الله عز وجل، فهي تمتد إلى كل جوانب الحياة ومختلف مجالاتها كما قال رب العزة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام/162-163). وهي سبيل نيل شرف الاستخلاف والعمارة. قال الراغب الأصفهاني «وشرف الإنسان بأن يوجد كاملا في المعنى الذي أوجد لأجله...، ودناءته بفقدان ذلك الفعل منه...، فمن لم يصلح لخلافة الله تعالى ولا لعبادته ولا لعمارة أرضه فالبهيمة خير منه، ولذلك قال الله تعالى في ذم الذين فقدوا هذه الفضيلة ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف/179)»[1].

• الإخلاص والصواب أساسا قبول العمل

تقوم العبادة على ركنين أساسين ينبني عليهما قبولها، وهما الإخلاص والصواب كما قال الفضيل بن عياض في بيان قوله تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك/2): «أخلصه وأصوبه». قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: «إذا كان العمل خالصا و لم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا و لم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا»[2].

أما الإخلاص فهو روح العبادة ولبها وثمرة الصدق مع رب العالمين. قال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا

(1) **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، ص 82، تحقيق د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام، القاهرة، 1428هـ – 2007م.

(2) **التفسير القيم**، لابن القيم، ج 78/1، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى 1410هـ.

﴿ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (البينة/5)، وورد في الحديث: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»[1]. قال الإمام الجنيد في تعريفه لهذا المقام السني: «وهو سر بين العبد وربه، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله»[2]. ومن أجله لم يكن للشيطان على المخلصين سلطان –وهو الذي ندب نفسه للغواية والإضلال– كما قال تعالى: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (الحِجر/39). وبفقدان الإخلاص تفقد العبادة حقيقتها فتصير جوفاء لا تنفع صاحبها، بل تشهد عليه كما ورد في حديث أولئك الذين تسعر بهم النار يوم القيامة[3].

فالحذر الحذر مما يطرد الإخلاص من القلب ويحبط العمل كالغرور والرياء والعجب وحب الظهور وغيرها من الأمراض الباطنية، ولاسيما في الدعوة إلى العبادة بالركون إلى الهوى في استغلال الدعوة لاصطناع زعامات مخالفة لاختيارات الأمة، خدمة لمشروع الطائفة وبرنامجها السياسي باسم الخطبة أو الوعظ أو الإرشاد، مما هو افتيات على مهام تدخل في اختصاص من كلفهم ولي الأمر بتدبير شؤونها.

وقد ورد في حديث ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لأعلمن أقواما من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات؛ أمثال جبال تهامة بيضا، فيجعلها الله عز وجل**

(1) البخاري، **كتاب بدء الوحي**، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، برقم 1، ومسلم، **كتاب الإمارة**، باب قوله ﷺ «إنما الأعمال بالنية» برقم 5036.

(2) **مدارج السالكين**، لابن القيم، ج 62/2، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1416هـ – 1996م.

(3) المقصود بهم المجاهد والمتصدق والقارئ ممن ركبهم الرياء و لم يخلصوا في أعمالهم كما ورد في الحديث المخرج في سنن الترمذي ومستدرك الحاكم وغيرهما «...أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة» .

هباء منثورا» قال ثوبان: يا رسول الله، صفهم لنا، جلهم لنا، أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم». قال: «**أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها**»[1].

وأما الصواب فهو، الموافقة للشرع: ومعناه أن يكون العمل مطابقا لمقتضيات شريعة الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(الأنعام/153)، ولقوله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[2].

وتنبني الموافقة للشرع على العلم الصحيح، لذا ناسب أن يكون الخطاب الشرعي داعيا إلى العلم ومعليا من شأنه لما ينجم عنه من صافي التوحيد وخالص العبادة.

قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (محمد/19)، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ (فاطر/28)، وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ (المجادلة/11)... وهذا رسول الله ﷺ يجلي هذا بقوله وفعله في الحديث الذي أخرجه الإمام ابن ماجه في سننه «عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم من بعض حجره، فدخل المسجد، فإذا هو بحلقتين: إحداهما يقرأون القرآن ويدعون الله، والأخرى يتعلمون ويعلمون. فقال النبي ﷺ: «**كل على خير،**

(1) ابن ماجه، **كتاب الزهد**، باب ذكر الذنوب، برقم 4245.

(2) البخاري، **كتاب الصلح**، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، برقم 2550، ومسلم، **كتاب الأقضية**، باب نقض الأحكام ورد محدثات الأمور،برقم 4589.

هؤلاء يقرأون القرآن ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بعثت معلماً» فجلس معهم[1].

ويعد العمل المدني المنهج الأقوم والطريق الأسلم في صفة العبادات، لأنه الصيغة النهائية للسنة النبوية التي مات عليها النبي ﷺ وبلغتنا بالتواتر العملي عنه.

• من ثمرات العبادة: تعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله

إن مما يجدر الإلماع إليه في هذا الصدد، أن العبادة الحقة هي الجامعة لأمرين رئيسين، وهما التعظيم لأمر الله بتقديمه على كل أمر، لأنه أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم، والشفقة على خلق الله بالرحمة والرأفة، عونا لهم على دفع الهشاشة عنهم من مرض وفقر وجهل... قال الإمام الرازي: «ما العبادة التي خلق الجن والإنس لها؟ قلنا: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، فإن هذين النوعين لم يخل شرع منهما»[2]. ولذلك قرن الله تعالى في أمره لعباده بين الشعائر وفعل الخيرات في آيات بينات؛ منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ (الحج/77). ولهذا كان أفضلُ الناس عند رب الناس أنفعَهم للناس.

---

(1) ابن ماجه، **كتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم**، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، برقم 229.

(2) **مفاتيح الغيب**، ج 193/28، لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1420هـ.

6. شمول العبادة لحياة الإنسان

• استيعاب العبادة لحياة الإنسان

إن مما يخطئ فيه كثير من الناس ويجانبون فيه الصواب ظنهم أن العبادة تقتصر على أداء الشعائر فحسب من صلاة وزكاة وصيام وحج... مما حرمهم من ثمراتها المنشودة وأبعد عنهم آثارها المقصودة، والحق أنها أوسع من هذا وأرحب، فهي تشمل حياة المؤمن كلها وتستوعب عمله جميعه لأنها استجابة للشارع الحكيم في كل أمر من أمور دنياه وأخراه.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُومِنٍ وَلاَ مُومِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْراً أَن تَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنَ أَمْرِهِمْۗ وَمَنْ يَّعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَد ضَلَّ ضَلَٰلاً مُّبِيناً﴾ (الأحزاب/36).

والناظر في دين الإسلام يلمح أن الخطاب الشرعي جعل كل ما يصدر عن الإنسان من قول أو فعل ظاهرا كان أم باطنا عبادة بدءا من الأكل والشرب والنكاح والبيع والشراء إلى أمور الجماعة وشؤون الدولة ما كان صاحبها خالص النية صحيح الأداء. كما يتجلى هذا الشمول في تنوع شعب الإيمان واستيعابها لحياة المكلف «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، أعلاها قول لا إلاه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1]؛ فالعبادة إذن شاملة لحياة الإنسان وكل شؤونه الفردية والجماعية.

---

(1) البخاري، **كتاب الإيمان**، باب أمور الإيمان، برقم 9، ومسلم، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم 162.

• أهمية الأعمال المتعدية في العبادة

إن أهم ما تنبغي الإشارة إليه هاهنا، أن الأعمال المتعدية التي يمتد نفعها ليستفيد منه أكثر الناس أفضل عند الله تعالى من الأعمال الذاتية التي يقتصر نفعها على صاحبها خاصة، لأن الإسلام يرضى للمكلفين حياة طيبة يتفيأون فيها ظلال الكرامة بما هي مقصد من مقاصد الخالق من الخلق.

قال رسول الله ﷺ: «**أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخ لي في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد -يعني مسجد المدينة- شهرا، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه، -ولو شاء أن يمضيه أمضاه-، ملأ الله عز و جل قلبه أمنا يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى أثبتها له أثبت الله عز وجل قدمه على الصراط يوم تزل فيه الأقدام**»[1]. وتأكيدا لهذا المعنى استثنيت الأعمال المتعدية من انقطاع سريان أجرها بموت صاحبها حيث يظل منتفعا بها ما دامت قائمة يجني عباد الله ثمار وجودها.

قال ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له**»[2].

قال الإمام النووي: «قال العلماء: معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموته، ويقطع تجدد الثواب له، إلا في هذه الأشياء الثلاثة لكونه كان سببها،

---

(1) الطبراني، **في الأوسط**، برقم 6026، **وفي الصغير**، برقم 861.

(2) مسلم، **كتاب الذكر والدعاء والتوبة**، باب ما يلحق الإنسان من الثواب عند وفاته، برقم 4310، والترمذي، **كتاب الأحكام عن رسول الله ﷺ**، باب في الوقف، برقم 1376.

فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم، أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية، وهي الوقف»[1].

ولأهمية نفع الناس ومنزلته عند رب العالمين قال الله تعالى فيما يرويه عنه رسوله الكريم على سبيل الترهيب من المحاسبة يوم القيامة على عدم تفقد أحوال الناس وأداء حقوقهم «**إن الله عز وجل يقول يوم القيامة، يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني. قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟. قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب، وكيف أطعمك وأنت رب العالمين. قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. يا ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني. قال: يا رب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين، قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي**»[2].

• من ثمرات شمول معنى العبادة

إن لشمول العبادة لكل مجالات عمل الإنسان فوائد جمة وثمارا ثرة، نذكر منها:

- **وحدة المجتمع وأمنه واستقراره:** حيث يكون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له بقية الجسد، مما يضفي على أفراده المودة والرحمة والتعاطف والتعاضد، تجسيدا لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ

(1) **المنهاج على شرح صحيح مسلم**، ج 85/11، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية 1392هـ.

(2) مسلم، **كتاب الصلة والبر والآداب**، باب فضل عيادة المريض، برقم 6721، والبيهقي، في **شعب الإيمان**، باب في عيادة المريض، برقم 9182.

وَالتَّقْوىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ﴾ (المائدة/2)، وتفعيلا لحديث الرسول ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، ثم شبك أصابعه**»[1]. وبهذا تسود المحبة والطمأنينة والأمن والاستقرار.

وتترسخ الوحدة أكثر حينما تتوحد صفة العبادات على مذهب معين، تفاديا لشر الخلاف الذي يعد سبب كل تفرق وتدابر. ومن هنا تأتي أهمية الثوابت الدينية في درء الفتن والمفاسد التي تنجم عن اللامذهبية.

- **الاستكثار من العمل الصالح**: إن استيعاب المؤمن لشمولية العبادة وفهمه لتأطيرها لكل أمور حياته هاجس رئيس في الإقبال بجد على أعمال الخير والإكثار منها طمعا في رضا ربه عز وجل وما أعده له من جزيل الثواب. وبهذا تظهر أعمال الخير وتنتشر، وتعمر الأرض بالصالحات والبركات، ويجتهد العاملون في تحصيل أعلى الدرجات، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۖ﴾(المطففين/26).
- **إتقان العمل وإحسانه**: ذلك أن من شأن استحضار هذه الشمولية أن تغرس في قلب العبد الإخلاص في العمل والصدق في الأداء، فلا يغش ولا يغبن ولا يدلس لأنه يعد نفسه في عبادة الله تعالى، الذي يحب المحسنين قال ﷺ: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه**»[2].

وبناء عليه، تسود الثقة بين الناس، ليشق المجتمع طريقه الصحيح نحو العمران المنشود الذي يعمل فيه أفراده لدنياهم كما يعملون لأخراهم.

(1) البخاري، **كتاب الأدب**، باب تعاون المومنين بعضهم بعضا، برقم 5680، ومسلم، **كتاب البر والصلة والآداب**، باب تراحم المومنين وتعاطفهم وتعاضدهم، برقم 6750.

(2) **المعجم الأوسط**، للطبراني، برقم 897، والبيهقي، في **شعب الإيمان**، باب في الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها، برقم 5312.

7. العبادات بثمراتها

• العبادة ليست عملا شكليا

ليست العبادة مجرد طقوس وحركات يأتيها العبد فحسب من غير أن يكون لها مقصد ولا غاية، وإنما لها روح هو سر تشريعها وجوهر أدائها كما دلت على ذلك النصوص الشرعية منها قوله تعالى في شعيرة الأضحية: ﴿لَن يَّنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَّنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ (الحج/37)، وكما ورد في الحديث أيضا «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»[1]؛ قال ابن الحاج: «فمراعاة الباطن أوجب من مراعاة الظاهر، لأن الظاهر للخلق والباطن للخالق وما كان للخالق فهو أوجب فلو جمع بينهما فهو الكمال والسعادة لمن اتصف بهما وصفة إخلاص الباطن التحقق بالتوكل على المولى سبحانه وتعالى والخوف منه والرجاء فيه والاتصاف بالصبر وسلامة الصدر وحسن ظنه بربه وحسن ظنه بإخوانه المؤمنين والاهتمام بأمورهم، فإذا فعل ما تقدم ذكره قوي الرجاء أن يكون من الموقنين»[2].

إن تركيز بعض الناس على أشكال العبادة من غير التفات لمقاصدها يحرمهم لذتها ويصرف عنهم ثمراتها، لذا حث الشرع على الإخلاص بما هو سر الانتفاع بالعبادة لقطف ثمارها وتمثل قيمها.

---

(1) مسلم، **كتاب الصلة والبر والآداب**، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، برقم 6707، وأحمد، في **مسند أبي هريرة**، برقم 10973.

(2) **المدخل**، ج 166/3، دار الفكر، 1401هـ – 1981م.

• من مقاصد العبادة

إن من الثمرات الرئيسة التي يرجوها العابد من عبادته:

– **تحرير الإنسان**: بإخراجه من عبادة هواه وتخليصه من أسر المادة وقبضة الدنيا وأمنه من الخوف على الحياة والرزق... ليكون عبدا لله دون سواه حيث لا يرجو غيره تعالى ولا يتوكل إلا عليه ولا يستعين إلا به. وهذا هو التوحيد الحق؛ قال رسول الله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**يا غلام، إني معلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك،رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[1]. وقد أجاد الشاطبي في بيان هذا التحرر بقوله في سياق حديثه عن المقصد الشرعي من وضع الشريعة: «إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدا لله اختيارا كما هو عبد لله اضطرارا»[2].

– **انتظام الحياة**: إن مما يكسبه العبد من أداء العبادات نظام الحياة بما هو سنة الله في الكون وقانونه في خلقه ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل/88). فالمطلوب منه أن يتمثل معاني العبادات في حياته ولاسيما تلك التي تعلمه النظام كما في الصلاة والحج وغيرهما حيث تمتد دروس شعائره لتغطي كل سلوكاته وجميع تصرفاته بالبيوت والأسواق والطرقات والإدارات... محترما في ذلك القوانين المنظمة التي تجسد وحدة

(1) أحمد، في **مسند عبد الله بن عباس**، برقم 2669، والترمذي، كتاب **صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله** ﷺ، باب منه برقم الحديث 2516.

(2) **الموافقات**، ج 168/2، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت.

بلده. ولأجل ذلك أوصى النبي ﷺ المؤمن أن يكون متميزا بانتظامه في مجتمعه وجمالية كينونته، قال ﷺ: «**إنكم قادمون على إخوانكم، فأصلحوا لباسكم، وأصلحوا رحالكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس، فإن الله لا يحب الفحش والتفحش**»[1].

– **التزكية**: وهي وظيفة عظمى من وظائف البعثة النبوية كما قال تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة/2)، فما شرع الشرع شعيرة من الشعائر إلا لغرض التزكية والتهذيب، فالصلاة تزكية ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت/45)، وهي مناسبة لتجديد الالتزام وقيام جماعة المسجد الصادقة للتعاون على البر والتقوى مما يقتضيه أمر الدين، بعيدا عن أهواء أهل الزيغ والفتن ممن يسعون لاختطاف هذه الجماعة لمصالحهم الدنيوية وأغراضهم السياسية، والزكاة تزكية ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة/103)، وهي تمرين على الجود والعطاء، والصيام تزكية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة/182)، وهو تذكير للإنسان ليميز بين الوسيلة والغاية، فهو يأكل ليعيش ولا يعيش ليأكل، والحج تزكية ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ (البقرة/197)، وهو موسم للتزود بقيم السلم والسلام والتجرد والتآزر ...

---

(1) أبو داود، **كتاب اللباس**، باب ما جاء في إسبال الإزار، برقم 4091، والبيهقي، في **شعب الإيمان**، باب فصل فيمن كان متوسعا ثوبا حسنا ليرى أثر نعمة الله عليه، برقم 6205.

وهي سبب النجاح وسبيل الفلاح، لذا أكد الله تعالى هذا الأمر بقسمه إحدى عشرة مرة بمختلف مخلوقاته حيث قال: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَيٰهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَيٰهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّيٰهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَيٰهَا ۝٤ وَالسَّمَآءِ وَمَا بَنَيٰهَا ۝٥ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَيٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَيٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّيٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّيٰهَا﴾ (الشمس/1-10). والتزكية عملية تقويمية مستمرة تتغيى تخلية النفس من الرذائل والقبائح وتحليتها بالمكارم والمحامد ترقية لها في مدارج الاستقامة والصلاح؛ قال الإمام الأصفهاني: «فمن هُدِيَ إلى سبيله وأمعن في مسيره مسارعا في الخيرات ومسابقا إلى مغفرة ربه فحقيق أن يصير من الأبدال، ومعنى الأبدال هم الذين يبدلون من أخلاقهم وأفعالهم الذميمة أخلاقا وأفعالا حميدة، فيجعلون بدل الجهل العلم، وبدل الشح الجود، وبدل الشره العفة، وبدل الظلم العدالة، وبدل الطيش التُّؤَدة»[1].

– **التخلق بأسماء الله تعالى**: إن من أعلى مقامات العبادة وأسناها أن يتخلق العبد بأسماء الله تعالى ولاسيما أسماء الجمال لتكون لمعانيها ودلالاتها امتدادات في حياته يجسد بها معنى الإحصاء الوارد في الحديث الصحيح «**إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة**»[2]، فيرحم الخلق بالتخلق باسمه الرحيم، ويصفح ويعفو عن الناس باسمه العفو، ويستر ويسامح باسمه الغفور، ويجود ويعطي باسمه المعطي...؛ قال العلامة أبو العباس الإقليشي:

---

(1) **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، 112، دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، 1983م.

(2) البخاري، **كتاب التوحيد**، باب إن لله مائة اسم إلا واحدا، برقم 6957، ومسلم، **كتاب الذكر والدعاء والتوبة**، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، برقم 6986.

«حقك أيها الإنسان أن تتأمل مواهب الله الدارة عليك والمسداة إليك، فإن كانت من المواهب الدنيوية فهب مما وهبك الله، ولا تشح بما جعلك عليه مستخلَفا، فقد وعد منفقاً خلفاً، وإن كنت ممن وهبه الله الأخلاق النفيسة من العلوم الموصلة إلى الدرجات الرفيعة فكن وهابا للمحتاجين منها ما لا غنى لهم عنها، ولا تكن من الكاتمين للأنوار فتلجم يوم القيامة بلجام النار... فكن ذا نظر وثبات فيما تهبه من الهبات، فبهذا تكون متعرضا للهبات العلية: الدنيوية والأخروية»[1].

(1) **الإنباء في شرح حقائق الصفات والأسماء**، 2/1065-1066.

8. الله خلق الدنيا لغايات وحكم وأوجب لها الحرمة

إن من أثبت الحقائق وأعظمها أن الله تعالى ما خلق الخلق عبثا من غير غاية ولا حكمة، فهو سبحانه وتعالى الحكيم في قوله وفعله يضع كل شيء في محله بحكمته وعدله؛ قال عز من قائل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (المومنون/115)، ولهذا جعل الدنيا للإنسان دار ابتلاء وامتحان في أداء مقاصده الوجودية من التوحيد والعبادة والخلافة والعمارة، ووجهه لحسن التعامل معها وجميل الاستثمار فيها من صالح العمل رجاء ما عنده عز وجل وهو خير وأبقى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك/2).

• حقيقة الدنيا وتعلق النفس بها

ولأن الإنسان ميال إلى زخارف الدنيا وشهواتها بحسب ما جبل عليه، فقد عرف الحق تعالى بحقيقتها ومنزلتها فقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ (الحديد/20)، وبين خصائصها وما تتسم به ليحافظ الإنسان على اعتداله المطلوب من غير إفراط ولا تفريط، ومن ذلك:

– **الفناء**: إذ لا خلاف أن الدنيا زائلة، وأن كل ما فيها إلى فناء، وأنها دار عمل واختبار منصوبة لتكون مسرحا لعمل الإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس/24).

– **المتاع القليل**: ذلك أن الدنيا كما وصفها القرآن الكريم لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر، ولذلك بين الحق عز وجل قدرها بالنظر إلى الآخرة بقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ (الرعد/26). وفي الحديث عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ مر بالسوق داخلا من بعض العالية، والناس كنفتيه، فمر بجدي أسك ميت فتناوله، فأخذ بأذنه ثم قال: أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ ثم قال: أتحبون أنه لكم؟ قالوا: والله لو كان حيا كان عيبا، إنه أسك، فكيف وهو ميت، فقال: فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليك.[1]

– **دار الفتن والشهوات**: الدنيا دار فِتَن بلا حَصْر، فِتَن متعددة ألوانها ومختلفة صنوفها، لذا كان التحذير من سوء التصرف فيها في نصوص شرعية كثيرة، كقوله ﷺ: «**والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها، كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم**»[2]...

---

(1) مسلم، **كتاب الزهد والرقائق**، باب منه، برقم 7607، وأبو داود، **كتاب الطهارة**، باب ترك الوضوء من مس الميتة، برقم 186.

(2) البخاري، **كتاب الرقاق**، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، برقم 6061، ومسلم، **كتاب الزهد والرقائق**، باب منه، برقم 7614.

• للدنيا حرمة وجبت مراعاتها

بالرغم مما سلف، لم يفهم من هذه النصوص ذم الدنيا وبغضها والإعراض عنها لما في هذا التصور من كفر بمشروع الله فيها ومخالفة لمقصد برئها، فقد أرشد الشارع الحكيم إلى مراعاة حرمة الدنيا والأخذ منها بالقسط بما يضمن بقاءنا واستمرار وجودنا فيها بحفظ الضرورات الخمس التي عليها قوام الحياة، حيث دعانا إلى السعي الحلال والكد المباح وطلب الرزق المشروع. قال عز من قائل: ﴿وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتِيكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْاَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ (القصص/77)، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْاَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ﴾ (الملك/15). قال محمد رشيد رضا: «فليس من هدي الإسلام أن يترك المسلمون الدنيا ومعانيها وسياستها ويكونوا فقراء أذلاء تابعين لغيرهم من الأقوياء، ولا أن يكونوا كالأنعام، لا هم لهم إلا في شهواتهم البدنية، وكالوحوش التي يفترس قويها ضعيفها. وهذا الجمع بين الأمرين مقتضى الفطرة، والإسلام دين الفطرة»[1].

• ثمرات ومقاصد

وفي سبيل تحقيق ذلك، دعا الإسلام إلى استثمار الحياة الدنيا بالعمل الصالح الذي تنجم عنه الحياة الطيبة ديدن الإنسان وغايته بإتيانه للمقاصد الكبرى التي خلقه الله تعالى من أجلها. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ

(1) **تفسير المنار**، ج 98/1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.

أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَالطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (الأعراف/32).

ومن حرصه على عمارة الأرض وإصلاحها، وجه النبي ﷺ أمته إلى الإقبال على فعل الخير ولو بعمل رامز كغرس فسيلة قبيل قيام الساعة إن استطاع إلى ذلك سبيلا.

قال ﷺ: «**إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل**»[1].

إن في الحديث فوائد تربوية جمة منها:

- التحرر من الأنانية والسعي لنفع الناس؛
- الحث على الإيجابية والتفاؤل والأمل؛
- الحض على عمارة الأرض ولو بعمل بسيط بحسب استطاعة الإنسان وقدرته؛
- استثمار العمر بالعمل الصالح مما يمكث في الأرض ويجني نفعه عامة الناس...

إن نظرة المؤمن إلى الدنيا وفق هذا التصور تجعل من كل أفعاله وأقواله عبادة لله تعالى، ومن ثم يعيش في الأولى سعيدا ماسكا بزمام العزة ومقومات القوة وشروط التمكين، وينعم في الأخرى آمنا مطمئنا: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة/38) ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَىٰ﴾ (طه/123).

(1) أحمد، في **مسند أنس بن مالك**، برقم 13004.

9. الإنسان والاستخلاف

خلق الله تعالى الإنسان وكرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء/70)، وسخر له الكون وهيأه له، وأسبغ عليه من فضله ونعمه ليؤدي رسالته كما أراد سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان/20). كما زوده بنعمة العقل ودعاه لإعماله في تدبر الخلق ليقف على عظمته عز وجل ويفقه معاني أسمائه وما تستبطنه من أسرار. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران/190).

ومن عيون التكريم التي شَرُف الإنسان بها أن استخلفه الله تعالى في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة/30) أي «مني، يخلفني في الحكم بين خلقي، وإن ذلك هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه، وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه»[1].

• الاستخلاف إظهار للحق وتجرد عن الهوى

إن الخلافة بما هي مقصد من مقاصد الخالق من الخلق سكن في الأرض وعمارتها وحكم بين الخلق بالعدل كما يؤكد ذلك الخطاب القرآني لداود

(1) **تفسير الطبري**، ج 452/1، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1420هـ – 2000م.

عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (ص/26). فالله تعالى استخلف الإنسان ليحمل هم الإصلاح وينشر قيم الخير والفضيلة ويكون أهلا لوراثة الأرض كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ (الأنبياء/105). وبهذا يمتد مفهوم الاستخلاف ليستوعب كل القيم الكونية والعالمية والإنسانية التي تعلي من قدر الإنسان كالعدل والحرية والكرامة والتعارف والتعايش...

وفي المقابل يكون الإنسان بسبب اتباع الهوى متخليا عن رسالة الاستخلاف، فيعيث في الأرض فسادا اعتداء وظلما وسفكا للدماء، وهذا سر قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ (البقرة/30).

• أسس الاستخلاف وشروطه

إن للاستخلاف مقومات وشروطا، إن تمسك بها الإنسان صار مستخلَفا حقا، وإن ضيعها ضاعت منه أمانة الاستخلاف. قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ (النور/55).

ولعل من أمهات هذه الشروط ما يأتي:

– **العبادة الحقة**: التي تنتج المؤمن الحق، ذلك أن الإيمان الصحيح مصدر كل نصر وعزة وتمكين وولاية ودفاع... ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالذِينَ ءَامَنُواْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الاَشْهَٰدُ﴾ (غافر/51)، ﴿وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُومِنِينَ﴾ (المنافقون/8)، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ (الحج/38)... وبالإيمان الصادق يتميز المؤمن عن الجاهل في عقيدته وفكره ومنهجه، حيث يرفل في حلل الحياة الطيبة آمنا مطمئنا راضيا... ولله در الإمام الرازي في بيانه لهذه الفروق بينهما، فقد أجاد وأفاد بقوله: «واعلم أن عيش المؤمن في الدنيا أطيب من عيش الكافر لوجوه: **الأوّل**: أنّه لما عرف أن رزقه إنما حصل بتدبير الله تعالى، وعرف أنّه تعالى محسن كريم لا يفعل إلا الصواب، كان راضياً بكل ما قضاه وقدره، وعلم أن مصلحته في ذلك، أما الجاهل فلا يعرف هذه الأصول فكان أبداً في الحزن والشقاء. **وثانيها**: أنّ المؤمن أبداً يستحضر في عقله أنواع المصائب والمحن ويقدر وقوعها، وعلى تقدير وقوعها يرضى بها، لأنّ الرضا بقضاء الله تعالى واجب، فعند وقوعها لا يستعظمها، بخلاف الجاهل، فإنّه يكون غافلاً عن تلك المعارف، فعند وقوع المصائب يعظم تأثيرها في قلبه. **وثالثها**: أن قلب المؤمن منشرح بنور معرفة الله تعالى، والقلب إذا كان مملوءاً من هذه المعارف لم يتسع للأحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا، أما قلب الجاهل فإنّه خالٍ من معرفة الله تعالى، فلا جَرمَ أن يصير مملوءاً بالأحزان الواقعة بسبب مصائب الدنيا. **ورابعها**: أنّ المؤمن عارف أن خيرات الحياة الجسمانية خسيسة، فلا يعظم فرحه بوجدانها

وغمه بفقدانها، أما الجاهل فإنّه لا يعرف سعادة أخرى تغايرها، فلا جرم يعظم فرحه بوجدانها وغمه بفقدانها. **وخامسها**: أنّ المؤمن يعلم أن خيرات الدنيا واجبة التغير، سريعة التقلب، فلولا تغيرها وانقلابها لم تصل من غيره إليه»[1].

– **العمل الصالح**: وهو مقوم أساس في استحقاق الاستخلاف، لذا كان مقرونا بالإيمان في خطاب الشارع للمكلفين ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝١ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ۝٢ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ (سورة العصر).

• من مقاصد الاستخلاف

إن أعز ما يطلبه الإنسان من سعيه وكده الحياة الآمنة الطيبة التي ينشرح فيها صدره وينعم فيها بالطمأنينة والسعادة والرزق الحلال ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل/97).

قال ابن كثير: «والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسرها بالقناعة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما لأنها السعادة»[2].

ولا تطيب الحياة ولا يسعد فيها الإنسان إلا بقدر نشاط نفسه من خلال تحليتها باليقين بالمحاسبة والمجاهدة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ

(1) **مفاتيح الغيب**، ج 268/20، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1420هـ.

(2) **تفسير ابن كثير**، ج 601/4، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1420هـ – 1999م.

سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت/69). وهو الطريق الذي سلكه النبي ﷺ في تربية صحبه الكرام تخلقا وتعلقا بأسماء الله تعالى، حيث تخرج من مدرسته الشريفة رجال سعداء أضفوا على حياتهم المعنى الحقيقي لوجودهم بما نهلوه من معلمهم القدوة من جليل القيم وشريف المبادئ.

10. وخلق الإنسان ضعيفا

• ضعف الإنسان يعرضه للآفات

إن أهم ما يميز الإنسان أنه مجبول على الضعف مطلقا، ضعف يستوعب حياته كلها المادية منها والمعنوية ويجلي حاجته وفقره لخالقه تعالى واحتياجه لغيره. قال عز من قائل: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (النساء/28). قال ابن القيم: «والصواب أن ضعفه يعم هذا كله، وضعفه أعظم من هذا وأكثر: فإنه ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر، والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في الحدور»[1].

ومن رحمة الإسلام بالإنسان أن شرع له من الأحكام والتشريعات ما يناسب طبيعته هذه المتسمة باستيلاء العجز على جملته. قال ابن عاشور: «تذييل وتوجيه للتخفيف، وإظهار لمزية هذا الدين، وأنه أليق الأديان بالناس في كل زمان ومكان، ولذلك فما مضى من الأديان كان مراعى فيه حال دون حال»[2].

وبسبب هذا الضعف، تداعى أعداء الإنسان عليه للإضرار به وإهلاكه حيث تصدر حمل لواء عداوته الهوى والشيطان.

• مفاسد اتباع الهوى

إن الهوى في الغالب الأعم تعبير عن ميل النفس إلى شهواتها ونزواتها

(1) **طريق الهجرتين**، ص 108، دار السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية 1394هـ.

(2) **التحرير والتنوير**، ج 22/5، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.

من غير ضابط، وهو أصل كل المعاصي والذنوب كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ (القصص/50). ولذلك كان الهوى أخوف ما يخاف منه النبي الكريم ﷺ على أمته حيث قال: «**أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى**»[1].

وكما يكون الهوى باتباع الشهوات بما هي سبب لكل انحراف سلوكي، يكون كذلك بإثارة الشبهات باعتبارها سبيل كل انحراف فكري، لذا كان أهل البدع والأهواء في كل عصر ومصر يسلكون مسلك الشُّبُهات لترويج افتراءاتهم ونشر أكاذيبهم إفسادا للفهم وإضلالا للناس. قال ابن القيم: «القلب يتوارده جيشان من الباطل، جيش شهوات الغي، وجيش شبهات الباطل، فأيما قلب صغا إليها وركن إليها تشربها وامتلأ بها، فينضح لسانه وجوارحه بموجبها، فإن أشرب شبهات الباطل تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والإيرادات، فيظن الجاهل أن ذلك لسعة علمه، وإنما من عدم علمه ويقينه»[2].

ومما يزيد من خطورة حال القلب تحالف الشيطان مع الجيشين ليكون له عليه سلطان. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ (فاطر/6)، وقد عبر إبليس نفسه عن هذه العداوة بقوله كما حكى عنه القرآن الكريم: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ

(1) أحمد، في **مسند أبي برزة الأسلمي**، برقم 19787، والبزار، في **مسند أبي برزة الأسلمي**، برقم 3844.

(2) **مفتاح دار السعادة**، ج 140/1، دار الكتب العلمية، بيروت.

أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ (الأعراف/16-17).

• آفات اتباع مداخل الشيطان

إن للشيطان أساليب في الإغواء والإضلال، وصفها كتاب الله تعالى بالخطوات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (النور/21). خطوات غرضها الرئيس إبعاد العبد عن الخير، وإيقاعه في الشر، وصرفه عن رسالته الإصلاحية التي أوجده الله تعالى من أجلها. قال النبي ﷺ «... **فأما لمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق**»[1]. قال الراغب الأصفهاني: «فكن أيها الأخ عالما، وبعلمك عاملا، تكن من أولياء الله الذين ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس/62)، واحذر الشيطان أن يسبيك ويغريك بأعراض الدنيا وزخارفها، فيجعلك من أوليائه ويخوفك بوساوسه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ (آل عمران/175)، واعلم أنه قبيح بذي العقل أن يكون بهيمة وقد أمكنه أن يكون إنسانا، أو إنسانا وقد أمكنه أن يكون ملكا، وأن يرضى بقنية معارة، وحياة مستردة، وله أن يتخذ قنية مخلدة، وحياة مؤبدة: فلم ير في عيوب الناس شيء.....كنقص القادرين على التمام»[2].

---

(1) الترمذي، **كتاب تفسير القرآن عن رسول الله** ﷺ، باب ومن سورة البقرة، برقم 2988، والنسائي، **كتاب سورة البقرة**، باب قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ برقم 11051.

(2) **الذريعة إلى مكارم الأخلاق**، ص 61، د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام، القاهرة، 1428هـ – 2007م.

وسبل الشيطان لا حد لها ولا حصر لتعدد طرائقه في الإضلال وتنوع مسالكه في التلبيس، فهو يخوف تارة ويزين تارة أخرى، ويوقع في اليأس والتسويف، ويفرق الجماعة ويثير الغضب بين أفرادها، ويوسوس للعابد ليفسد عبادته، ويعد ويمني... ومما يفيد في هذا السياق ما كتبه الإمام أبو حامد الغزالي في بيانه التفصيلي لمداخل الشيطان إلى القلب بذكره لأبوابها العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنوده حيث أجملها في الآتي[1]:

- الغضب والشهوة؛
- الحسد والحرص؛
- الطمع في الناس؛
- العجلة وترك التثبت؛
- التعصب للمذاهب والأهواء والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار؛
- شغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات؛
- سوء الظن بالمسلمين.

إن استشعار الإنسان لضعفه ولاستهدافه من قبل أعدائه يدفعه للبحث عما به يجبر ضعفه ويؤمِّن نفسه، ولن يجد أمامه إلا باب الله مفتوحا ليلتجئ إليه متوكلا مستعينا متواضعا منكسرا بين يديه سبحانه وتعالى، وبهذا يستمد العون والقوة فيعيش سعيدا آمنا مطمئنا: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرعد/28).

(1) **إحياء علوم الدين**، ج 32/3، وما بعدها، دار المعرفة، بيروت.

11. حسن تدبير ضعف الإنسان

يمكن للمؤمنين إرساء دعائم الحياة الطيبة التي لا خوف ولا حزن فيها، وتغيير نمط عيشهم بتجديد معاني التوحيد في قلوبهم، وإحياء مقاصد العبادات في نفوسهم؛ وذلك بإعمال وازع القرآن، من أجْل دفع المضار عن الناس وجلب المنافع لهم في الحال والمآل؛ لأن الشريعة إما أمر بمعروف أو نهي عن منكر؛ فبالأول تُجلب المصالح، وبالثاني تدفع المضار. والمتفق عليه بين جمهور العلماء أن الله سبحانه وتعالى ما شرع حكما إلا لمصلحة عباده، وأن هذه المصلحة إما جلبُ نفعٍ لهم، أو دفعُ ضررٍ عنهم. وكان منهج التشريع الإسلامي لرعاية هذه المصالح اتباع طريقين أساسين: **الأول**: تشريع الأحكام التي تؤمن تكوين هذه المصالح وتوفير وجودها. **والثاني**: تشريع الأحكام التي تحفظ هذه المصالح وترعاها وتصونها، وتمنع الاعتداء عليها أو الإخلال بها، وتؤمن الضمان والتعويض عنها عند إتلافها أو الاعتداء عليها، وبذلك تصان مصالح الإنسان، وتحفظ، وينعم الناس بها، ويتمتعون عمليا بها في الحياة الطيبة التي وعدهم الرحمن بها.

• درء المفاسد المترتبة عن ضعف الإنسان لحفظ الحياة الطيبة

إن من أعظم المفاسد والمضار التي تهدد الحياة الطيبة للمؤمنين، والتي يجب التنبيه عليها وتوجيه العناية إلى تحييدها وتقليص مضارها؛ ما يفسد مقاصد الدين وكلياته؛ منها ما يفسد المال كالأمراض الناشئة عن الإسراف الذي نهى

الإسلام عنه في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف/29)، والرشوة التي تشكل عائقا ضد تقدم المجتمع، وتقف سدا منيعا يعيق تنميته، وتفرغ مفهوم «دولة الحق والقانون» من كل معانيه، وتكرس واقع الظلم والغبن الاجتماعيين.

ومنها ما يفسد العقل والبدن، مثل الإدمان الذي يعد من الآفات الهادمة للحياة الطيبة لما يسبّب من الأزمات الاجتماعية والأضرار الصحية والنفسية، مثل التفكك العائلي، وظهور جرائم الاغتصاب والاعتداء والقتل وارتفاع حوادث السير، كما يهدد قيم المجتمع الدينية والأخلاقية. ومثل الاكتئاب مرض العصر الأكثر انتشارا الذي قد يؤدي إلى انعزال المريض عن محيطه وفقدان الاتصال بمن حوله، وقد ينتهي بالانتحار. ومثل العنف الذي صار ظاهرة استفحلت في المجتمعات المعاصرة، وخلفت أضرارا عميقة في النفوس والأبدان، وأسهمت في انتشار مشاعر الحقد والكراهية والتمييز والإقصاء.

وهذه العلل تقوض مقومات الحياة الطيبة، وتخلف آثارا سلبية على الفرد والمجتمع تتمظهر في تفكك الأسرة واختلال بنيات المجتمع وتدهور الاقتصاد، وارتفاع كلفة العلاج وأعباء المحافظة على الأمن والاستقرار؛ وهي كلها كلفة ومصاريف تتحملها الأسر والمجتمعات.

• جلب المنافع لتعضيد ضعف الإنسان تعزيزا لمكونات الحياة الطيبة

من المصالح والمنافع التي يجب جلبها لتعزيز مكونات الحياة الطيبة:

– **ضمان أمن المجتمع واستقراره**، وهو واجب ديني وإنساني، لا يمكن بأي حال من الأحوال التفريطُ فيه، فوجب أن تعمل كل أسرة على بناء شخصية أبنائها وفق قيم الولاء للمجتمع ونظامه، ليتحمل بعد ذلك كل فرد مسؤولية حفظ دينه ومجتمعه وتحقيق أمنه واستقراره.

– **إعمال وازع القرآن لتعزيز الصحة النفسية للأفراد في ظل المجتمع الآمن المطمئن**؛ لقد اهتم الدين بالصحة النفسية للمسلم بأن أرشده إلى الإيمانِ بالله وبقضائه وقدره، وأنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن أمر رزقه وأجله مقدر معروف؛ فحالة المؤمن النفسية مستقرة مطمئنة؛ وإن أصابه بأس أو بلاء أو عنت في العيش لا يفقد الأمل ولا ييأس ولا يقنط، بل يرضى بما قسم الله ويواصل الجد بالجد ويتحرى الأمور النافعة؛ فالمؤمن أقوى الناس روحا، وأصحهم نفسا، فقد ملأ الإيمان ما بين جناحَيه أمنا وطمأنينة ورضى وأملا وحبا، وطهر نفسه من أدران الحقد والغل والحسد والبغضاء، وأمراض القلوب الفتاكة التي تهدم النظام الاجتماعي وتخرب منظومة قيمه، وتُحول الناس إلى مخربين يهدمون أنفسهم وإخوانهم.

– **إعمال وازع القرآن للتنبيه إلى رعاية الصحة البدنية للأفراد في ظل المجتمع الآمن المطمئن**؛ فالصحة البدنية مصلحة شرعية وضرورة إنسانية وليست ترفا،

أو أمرا كماليا. وحفظ الصحة موقوف على تدبير المشرب والملبس والمسكن والهواء النقي والنوم واليقظة والحركة والسكون، فإذا حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبدن وظروفه كان ذلك أقرب إلى دوام الصحة والعافية وحفظها وحمايتها؛ قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**»[1]، وإذا استكمل ذلك بتجنب الأشربة والأطعمة الضارة، والتوسط والاعتدال في المأكل والمشرب، إعمالا لمبدأ: «الوقاية قبل العلاج»؛ والحرص على التداوي، عملا بقول النبي ﷺ: «**مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً**»[2]؛ كان ذلك سبيلا إلى ضمان الحياة الطيبة الموعودة وتوفير شروطها.

(1) الترمذي، **كتاب الزهد عن رسول الله** ﷺ، باب منه، برقم 2346، والبيهقي، في **شعب الإيمان**، باب في الزهد وقصر الأمل، برقم 10362.

(2) البخاري، **كتاب الطب**، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، برقم 5354، والنسائي، **كتاب الأشربة المحظورة**، باب لبن البقر، برقم 6863.

12. تعضيد الضعف الإنساني بإعمال وازع القرآن

إن الضعف سمة غالبة على الإنسان وملازمة له حياته كلها منذ خلقه إلى شيبته مرورا بشبابه وفُتوته وهو يتقلب من ضعف إلى ضعف، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضُعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ (الروم/54). فهو لا يعرف معه الطمأنينة والأمان إلا بالإيمان؛ القوةِ الحقيقية الوحيدة فيه، وما سواه ضعف وإن كان ظاهره القوة؛ لهذا وصف الله تعالى الإنسان بعدة أوصاف تدل على ذلك الضعف في كتابه العزيز، حيث وصفه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وبقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولاً﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُوراً﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ فَتُوراً﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلاً﴾، وغيرها من الآيات التي تنبه المؤمن إلى مظاهر ضعفه التي قد تفوت عليه الحياة الطيبة وتحرمه من نيل مرضاة الله إن لم يتدارك ضعفه بالإيمان والعمل الصالح.

• مراعاة حقيقة ضعف الإنسان مظهر لرحمة التشريع في القرآن

إن تأكيد القرآن لحقيقة كون الإنسان ضعيفا لون من ألوان رحمة الله ورأفته بعباده؛ وفي ذلك توجيه للتخفيف، وإظهار لمزية الرحمة في هذا الدين، وأنه أليق الأديان بالناس في كل زمان ومكان، كما يتبين في التشريعات اليسيرة الرحيمة المناسبة لطبيعة الإنسان المجبولة على الضعف والوهن، ولتكوينه

النفسي والعقلي والجسدي؛ فجاء الدين سمحا، والتكليف مناسبا ويسيرا، مصداقا لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة/185). وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج/78).

♦ **وازع القرآن نمط سلوك وعيش فيه مصلحة الإنسان**

إن المؤمنين اليوم في أمس الحاجة إلى استعمال وازع القرآن لدرء مكامن النقص فيهم، وإحياء مكامن الخير في نفوسهم، وتحويل مركز اهتماماتهم عن الذات إلى الآخرين من خلال بلورة أحكام الدين وقيمه وتفعيلها في الحياة على أساس العقيدة الصحيحة واليقين في التوحيد، بالتصديق بأن ما عند الله خير وأبقى، وأن ما يقدمه المسلم لِلغير يجده عند الله خيرا وأعظم أجرا؛ وأن المعطي أفضل وأحب عند الله من الآخذ.

• استحضار المعنى الشمولي للعبادة يعطي نتائج عملية لحسن تدبير ضعف الإنسان

إن العبادات التي شرعت في الإسلام، واعتبرت أركانا في الإيمان، ليست طقوسا مبهمة أو حركات لا معنى لها، إنها فرائض يؤديها المؤمن وبشكل منتظم لتعويده أن يحيى مستمسكا بالحبل المتين الذي يصله بربه، ويساعده على درء ضعفه.

♦ **تزكية النفس بالذكر والمداومة عليه**

إن الغاية الجوهرية للعبادة هي الارتقاء بالإنسان في مدارج الكمال الممكن،

المؤسَّس على الحرية المنتزعة من معاني التوحيد الخالص، وتزكية النفس من رعوناتها وما يعتريها من خلل وضعف، من أجل تنقية الوجود الإنساني من الشوائب والانحرافات، تأسيسا للحياة الطيبة، وتمهيداً للفوز برضى الله والقرب منه. ولقد جاءت عبادات الإسلام جميعها تزكيةً للنفس والبدن، وتطهيراً للذات من النزوعات الذميمة، وتنمية للروح والإرادة، وتصحيحا لنشاط الجسد والغريزة. فهي بمثابة معراج تتدرّج به النفس البشرية، مرحلةً بعد أخرى، حتى يتمّ لها الصفاء والنقاء، فتستطيع تحقيق التوازن بين الحياة الأولى والآخرة.

إن العبادة ممارسة إنسانية رفيعة لتطهير النفس من الأنانية تطهيرا تاماً من أجل التحرّر من قيودها، والانعتاق من آصارها ونقائصها التي تشدّ الإنسان إلى مصايد الهوى والشهوات وتستعبده. ولا يكون هذا التحرر إلا بيقين التوحيد؛ وإخلاص العبادة لله.

♦ **محاسبة النفس باستحضار حقوق النفس وحقوق الغير**

إن من أهم ثمرات الإيمان الصادق حرص المؤمن على محاسبة نفسه قبل ملاقاة ربه الذي يعلم السر وأخفى، عملا بقول النبي ﷺ، المروي عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، رضي الله عنه: «**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**».[1] ومعنى قوله «من دان نفسه»: حاسَب نفسَه في الدنيا قبل أن يحاسَب يوم القيامة. فإن المؤمن الموقن بيوم الحساب يتزين للعرض الأكبر؛ روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ

(1) الترمذي، **كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ**، باب منه، برقم 2459، و ابن ماجه، **كتاب الزهد**، باب ذكر الموت والاستعداد، برقم 4260.

أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الحِسَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا» كما روي عن ميمونِ بنِ مِهْرَانَ، قَالَ: «لَا يَكُونُ العَبْدُ تَقِيًّا حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ كَمَا يُحَاسِبُ شَرِيكَهُ مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ وَمَلْبَسُهُ»[1].

ومن تجليات هذه المحاسبة اجتناب الظلم، والاجتهاد في حفظ الحقوق والحرص على أدائها لأصحابها في الدنيا قبل الآخرة؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَخْلُصُ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**»[2]، وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه وأخذه من غير وجهه ومن أضر بأخيه المسلم أو بغيره فقد ظلمه؛ والظلم ظلمات يوم القيامة كما ثبت في الصحيح عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ**»[3]. ولقد أبرز القرآن أمر النفس بإظهار أعظم آثارها عندما بين أن المرض الأشد الذي ينبغي أن تتخلص منه هو مرض الشح والبخل، فقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (التغابن/16)، وإن الغاية القصوى للتأثير بوازع القرآن هي إسعاف الناس في ضعفهم وتحويل

(1) الترمذي، **كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ**، باب منه، برقم 2459.

(2) البخاري، **كتاب الرقاق**، باب القصاص يوم القيامة، برقم 6170، و أحمد، في **مسند أبي سعيد الخدري**، برقم 11113.

(3) مسلم، **كتاب البر والصلة والآداب**، باب تحريم الظلم، برقم 6741، وأحمد، في **مسند جابر بن عبد الله**، برقم 5662.

مركز لذتهم من لذة الأخذ إلى لذة العطاء، إذ بالبذل والتعاون يمكن للمسلم أن يزكي نفسه بالشعور بالآخرين ممن حوله في المجتمع من الذين يحتاجون إلى الرعاية؛ وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحبُّ لِنَفْسِهِ**»[1].

♦ **محاسبة النفس بحملها على العطاء وفعل الخير**

إن السبيل الوحيدة للاستمتاع بالحياة الطيبة هي رفع منسوب العطاء ليعُم الجميعَ الهناءُ. فالبذل ولو من قليل من قيم المجتمع ومكوناته الرئيسة التي لا يجوز أن تغيب عنه، كي يسود الشعور بالمحبة والأمان والطمأنينة، فالعطاء هو فن من فنون الحياة الطيبة، ولكن ما أجمله وأطيبه وأنقاه عندما يكون خالصا لله تعالى، وما أعظم أجره عند الله، وأجدى نفعه على النفس، وأعمق أثره على المجتمع عندما تقدم لغيرك ما تجود به نفسك، وألا تعيش لأجل نفسك فقط، فالمؤمن الموقن لا يعيش لنفسه، وإنما يعيش للآخرين ويمنح لهم الخير وينفعهم بما ملكت يداه، فهو رحمة لمن حوله، يعطيهم من الوقت والحب والحنان والاهتمام، ويعطي كل ذي حق حقه، ويزيد مما أفاء الله عليه.

إن من أعظم مظاهر معالجة ضعف الإنسان ودرء نقصه تكامله مع إخوانه من خلال نفعهم والتعاون معهم؛ حيث تصير الجماعة محضنا للأفراد، تعالج فيه الأنفس المعطاءة بالتخلص من الشح والأنانية، وتترقى فيه الجماعة المتضامنة بدرء ضعف ذواتها وإمكاناتها ونقص مواردها؛ من أجل هذا المعنى وسّع الإسلام دائرةَ العبادة، وجعل كل عمل اجتماعي نافعٍ عبادةً مَرْضية، ما دام

(1) البخاري، **كتاب الإيمان**، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، برقم 13، والترمذي، **كتاب صفة القيامة والرقائق والورع**، باب منه، برقم 2515.

فاعلُه يقصد الخير له ولإِخوانه في الإنسانية. فكل عمل يخفف به الإنسانُ كربةَ مَكْروبٍ، ويُدخل به الفرحةَ في القلوب، أو يقيل به عثرةَ مغلوب، هو عبادة وقربة، وكلُّ عمل أو قول يهدي به الإنسان حائرا، أو يعلم به جاهلا، أو يصلح به بين متخاصمين، هو عبادة، وكل عمل يزيل به الإِنسان أذى عن طريق، أو يحمي به بيئة من تلوث، أو يسوق به نفعا، أو يدفع به ضرا، أو يمنع به شرا، كل ذلك وغيره مما يحقق النفع العام ويساعد على الرقي والتقدم هو عبادة وقربة وطاعة لرب العالمين.

13. الارتباط بالله بالصلاة والذكر والدعاء

إذا كان أول ما يجب تبليغه للناس في إطار مهمة العلماء هو مراد الله من خلقه، المتمثل في عبادته وحده، فإن رسالة الإنسان في الأرض أن يعبد الله الذي خلقه ورزقه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، دون الالتفات إلى غيره. فالدين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَالِإنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات/56).

• من مهام التبليغ توجيه الإنسان إلى التعلق بالله وحده

لما كان الإنسان قد خلقه الله ضعيفا معرضا للأهواء والإغراءات، تتقاذفه الأوهام والشكوك، فإن من مهام تبليغ الدين الكامل توجيه الإنسان في حياته إلى التعلق بالله وحده، والرجوع إليه في كل أمر، والعمل على تغيير نمط حياته بتجديد معاني العبودية الخالصة في قلبه، وتجديد مقاصد العبادات في نفسه، واكتساب القدرة على فعل الأعمال الصالحة. فليس أشرف للمؤمن من أن يرتبط بمن خلقه ورزقه ويطرح الالتفات إلى غيره. فسعادته تكمن في توجيه هَمه إلى الله الواحد الأحد، والتحرر من سلطة الأغيار واتباع الهوى ومغريات الدنيا وفتنة المعاش. إنه حق الله على العباد، فقد روى البخاري عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**يا معاذ: أتدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا**» [1].

(1) البخاري، **كتاب الجهاد والسير**، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى التوحيد، برقم 6938، ومسلم، **كتاب الإيمان**، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه، برقم 153.

إن الله تعالى ليس في حاجة إلى عبادة أحد منا، فهو غني عن العالمين، لكنه يعلم ضعفنا، ولذلك أرشدنا ودعانا إلى تجاوز هذا الضعف، وهو ما ينبغي معالجته والعمل من أجل بيانه للناس، فالغاية هي مساعدة الضعيف على التغلب على ضعفه بتحقيق عبوديته لله، وتصحيح إيمانه وحسن التوجه إليه والارتباط به، وشرع له مجالات تعبدية عديدة يؤديها امتثالا لأمره وأداء لحقه تعالى على عباده، وشكرا لإنعامه وإفضاله، واستمدادا للقوة والثقة منه، ولعل أبرزها: الصلاة والذكر والدعاء. وإذا كانت ثلاثتها تندرج ضمن مقتضيات الإيمان بالله وتوحيده وتمجيده، فإن في المداومة عليها، والحرص على أن لا تكون مجرد طقوس جامدة أو حركات لا معنى لها، تعزيزا لصلة الإنسان بربه، وتحقيقا لواجب الارتباط والتعلق به واستمدادا لمقتضيات الإيمان الصادق.

• الصلاة توثيق وتجديد للصلة بالله

إن مقتضى ارتباط الإنسان بالله تعالى، الموجِد له ورازقِه، أن يُخضِع أموره كلها لما يحبه ويرضاه، ففي ذلك حل لمشكلاته وسلام لضميره وتطييب لحياته. فمن الجحود أن يزعم الإنسان لنفسه الاستقلال عن الله المتفضل عليه بالإيجاد والإنعام، ويلتمس الحل خارج دائرة الارتباط به تعالى، ولذلك اعتبرت الصلاة تجديدا لهذا الارتباط، فهي تحول دون انقطاع المؤمن عن ربه عندما ينساه ويغفل عن ذكره، فهي وسيلة بناء شخصيته المغذية لإيمانه، إذ من خلالها يُستدام الالتزام بما يتوجه به منها إلى الله قولا وخضوعا، وما يصاحب ذلك من خشوع يبعده عن الجفاء الذي يولد العنف. فالمؤمن مطالب بأن يستشعر الآثار السلوكية لألفاظ وعبارات الصلاة في حياته. فيكون مثلا

التكبير الذي يتردد عشرات المرات في الصلاة يوميا إعلانا عن الانعتاق من كل شغل يشغل أو يُلتفت إليه، كما أن تخصيص العبودية لله (إياك نعبد) تحرر بالله تعالى من كل القيود التي تشد المؤمن إلى الخضوع والاستسلام لما سوى الله. وفي طلب الاستعانة (إياك نستعين) طلب الرحمة والأخذ بضعف المؤمن وتقوية إرادته. ومجموع الآية تلتقي فيها العبادة والاستعانة في ارتباط بديع يفيد التلازم، فلا يستحق العبادة والاستعانة إلا الله وحده، وبتدبر الآية يدرك المؤمن معنى ومغزى استخلافه ووجوده ورسالته في الحياة. وإذا كانت العبادة مبنية على كمال المحبة مع تمام الذل والاستكانة لله، فإن الاستعانة قائمة على كمال التوكل عليه سبحانه افتقارا إليه ورجاء فيه. أما طلب الهداية إلى الصراط المستقيم فيُشعر بأمل حصول الاستقامة على النهج الرشيد بعيدا عن جميع السبل الملتوية والمنحرفة. فالإنسان يحتاج إلى الهداية في كل وقت، فسبيل الله المستقيم واضح كما أن سبل الغواية والانحراف معروفة.

وإذا كان أصل مشروعية الصلاة الخضوع لله سبحانه بإخلاص التوجه إليه وتذكير النفس بالذكر له مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ (طه/14)، فإن من مقاصدها إصلاح النفس، وكفها عن رعوناتها وشهواتها، مما من شأنه أن يعزز حسن الارتباط بالله تعالى ومراقبته، وهو ما يفهم من كلام الشاطبي عندما قال: «وهكذا العبادات فإن المقصد الأصلي فيها التوجه إلى الواحد المعبود وإفراده بالقصد إليه على كل حال ويتبع ذلك قصد التعبد لنيل الدرجات في الآخرة أو ليكون من أولياء الله تعالى وما أشبه ذلك»[1].

(1) **الموافقات**، 2/ 398، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت.

بيد أن الصلاة المطلوبَ تحقيقها لحسن الارتباط والصلة بالله تعالى إذا لم تؤد مهمتها في غرس الخوف من الله وإيقاظ الضمير، مما يؤدي إلى الابتعاد عن الوقوع في الفحشاء والمنكر فإنها تبقى ناقصة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ (العنكبوت/45).

• الذكر والدعاء حضور وتعلق

تبين الآية السابقة أوجه الترابط بين الصلاة التامة وذكر الله الذي هو المقصود الأصلي، فالصلاة فيها تحصيل لخير كبير وهو ذكر الله، وهي عندما تكون جامعة لذكر القلب واللسان تورث الخشوع والخضوع التام، بحيث يؤدي المرء عبوديته الخالصة ظاهريا وباطنيا. فذكر الله حضور واستحضار لأصل الأمور كلها تبعا لإرادة الله، وهو مطلوب بجميع أشكاله وأحواله، وهو الرافد الدائم لتوحيد الله وتقوية الإيمان وتزكية النفس وعدم الوقوع في نسيان الالتزامات الإيمانية الواقية من الضلال، فهو يوقظ القلب ويبقيه حيا ومطمئنا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (الأحزاب/41)، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۗ﴾ (الرعد/28). قال القرطبي: «أي تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن»[1].

إن الذكر إذا كان ركنا قويا في طريق الحق سبحانه وتعالى، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر كما قال الإمام القشيري[2]، فإن الدعاء يبقى سبيلا قويما

(1) **تفسير القرطبي**، 315/9، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية 1384هـ – 1964م.

(2) **الرسالة القشيرية**، 347/2، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة.

في طريق الارتباط والاتصال المباشر بالله تعالى، لدلالته على تذلل العبد وإقباله على الله والإعراض عمن سواه. ولعل من أعظم نعم الله تعالى أن جعله بدون واسطة، فهو اتصال مباشر بين العبد وربه، لا يحُده زمان أو مكان، يجد فيه الإنسان حلا لمشكلاته وأملا في الحياة الطيبة التي يأملها، لأنه يحقق سمو الارتباط بالخالق في أبهى صوره، فهو تجديد للعهد أمام الله تعالى واعتراف بالنعم وشكر عليها وطلب لقضاء الحاجات. ولولا الدعاء الذي لا يمكن إلا أن يكون خالصا ومصحوبا بالثقة وحسن الظن بالله لم يبال الله تعالى بأحد من خلقه فهو غني عنهم، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ﴾ (الفرقان/77).

إن الدعاء الذي هو مُخّ العبادة، تتجلى فيه روح العبودية بما يدل عليه من مناجاة وإقبال تام للعبد على الله تعالى، فهو يترجم عمق الصلة بين العبد وخالقه من خلال البَوح والاعتراف بالذنوب التي تطبع حياته وحصول الأمل والرجاء في الارتقاء إلى حال أفضل وأطهر تتغيى حصول الحياة الطيبة، وإذا استوعبنا جيدا هذه المعاني والمراقي وتحققناها بقلوبنا سهل التطلع إلى تحقيق أرقى درجات العبودية لله، فنذوق بذلك حلاوة الارتباط به والتنعم بقربه.

• من ثمرات الارتباط بالله

لا شك أن القلب إذا اطمأن إلى الله تعالى بالصلاة والذكر والدعاء، وسكن إليه بالإخلاص في الطاعة والعبادة،كان ارتباطه به قويا، وإعراضه عمن سواه جليا، وأثمر كل ذلك في نفسه ما ينتفع به من ثمرات واضحة، منها:

- أن حسن التحقق بالمعاني العميقة للصلاة والذكر والدعاء باعتبارها عبادات تستلزم التوجه إلى الله بإخلاص والتعلق به يمنح الحياة الطيبة القائمة على مقتضيات الإيمان الصادق والعمل الصالح، ويبني سكينة النفس ويعالج مشاكل الإنسان؛
- أن من شأن الارتباط القوي بالله تعالى بالاستعانة بالصلاة والابتهال إليه بالدعاء وذكره تقويةَ جانب الانعتاق من قيود وحواجز الخلق، والتحرر من الذل والخضوع لغير الله تعالى؛
- أن في استيعاب المقاصد العميقة للعبادات في علاقتها بوجوب الارتباط بالله تعالى وإخلاص التوجه إليه مما يغفله كثير من الناس حلا لأزماتهم ومشاكلهم فيكونون قادرين على ترجمة تعاليم الدين وقيمه إلى سلوكيات قويمة واختيارات حياتية سليمة؛
- أن تحرر الإنسان من الخضوع والعبودية لغير الله تعالى بالارتباط به عن طريق العبادات يثمر الشكر والاعتراف بالجميل، ويؤتي في النفس أكله، وفي السلوك ثمرته، وفي المجتمع صلاحه، وبذلك يتحقق التوازن بين الحياة الدنيا والآخرة فيسعد الإنسان بوعد الله تعالى له بإحيائه الحياة الطيبة القائمة أساسا على حسن الارتباط بالله، مستعينا في ذلك بالصلاة والذكر والدعاء.

14. تدين الفرد والجماعة

توجه خطاب التكليف الشرعي للناس أفرادا وجماعات، وبصيغ التكليف المقررة عند العلماء المفيدة للوجوب والتحريم والندب والكراهة والإباحة؛ كما شمل خطاب التكليف حياة الناس كلَّها، يؤطرها ويوجهها ويرشدها إلى ما فيه صلاح عاجلها وآجلها معا على مستوى العبادات وعلى مستوى المعاملات.

وبين الفرد والجماعة مسؤولية مشتركة، فكما أن الفرد مسؤول عن جماعته بخدمتها والتعاون معها على الخير والمعروف؛ فهي مسؤولة عنه كذلك بحمايته وتأطيره ورعاية حاجياته. والجماعة تتقوى بقوة أفرادها وتضعف بضعفهم، ولهذا كان المؤمن القوي خيرا من الضعيف، لأن قوته كما هي لنفسه هي لجماعته وأمته كذلك.

• تدين الناس أفرادا

إن التدين الفردي مُقدَّم على الجماعي، فالفرد مطالب بتحصيل قناعته بالدين والتزامه بتعاليمه في نفسه ابتداء؛ وذلك على مستوى التحقق بأركان الإيمان والإسلام والاجتهاد في سائر الطاعات والالتزامات في قطاعات الحياة المختلفة.

فالأصل القيام الفردي بالتكاليف، وما تعين منها متعلقا بذمة الأفراد على الخصوص؛ والإنسان كما يُكلف فردا ابتداء، يُحاسب فردا انتهاء كذلك، فحسابهم فرادى بين يدي الله تعالى غدا يوم القيامة، مترتب على تكليفهم ومدى استجابتهم له فرادى في الحياة الدنيا.

ولقد ميز العلماء بين الفروض والواجبات العينية والكفائية، فجعلوا العيني في حق كل مكلف فردا، يقوم به وينجزه هو ولا يُجزئ عنه قيام غيره به، مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج وإبرام العقود وغير ذلك...؛ وجعلوا الكفائي ما يقوم به البعض ويجزئ عن الباقين. وسوى بعض العلماء[1] بينهما من جهة حكم الوجوب فيهما معا حتى يُقام بالعمل، فيجزئ في حال الفرد، ويسقط عن الباقين في حال الجماعة.

إن خلاصة التدين الفردي قائمة على تزكية النفس باطنا، واستقامة السلوك ظاهرا، حتى يتأهل الفرد إلى الانخراط في الإنجاز والأداء الجماعي في الأمة.

• تدين الناس جماعة، أمة ودولة

لابد من التذكير أولا أن الجماعة أصل في الوجود البشري، وضرورة من ضرورات الحياة، لا من جهة تحصيل أمنها ودفع الغوائل عنها، ولا من جهة تحصيل معاشها وانتظام أمرها. وكما يقول العلامة ابن خلدون: «إن الاجتماع الإنساني ضروري، ويُعبر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع. (...) [وذلك] لأن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته، (...) فلابد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه. (...) وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه. (...)، فإن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني، وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم».[2]

(1) أبرزهم الإمام الآمدي في (**الإحكام**).

(2) **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، 1/ 55، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية 1408هـ – 1988م.

فمن ههنا لم يكن للناس غنى أبدا عن الدين بأحكامه المرشدة وقيمه الملهمة، وذلك باعتبارهم أمة تجمعها ملة، وباعتبارهم دولة تقوم على نظام يكفل مصالح الناس ويدبر حاجياتهم؛ فالناس محتاجون فطرة إلى تزكية نفوسهم وتهذيب أخلاقهم بما يجعلهم فاعلين ومنخرطين في بناء وطنهم وتنمية دولتهم. كما كان الدين دائما عنصرا حاسما في استقرار البلدان وحفظ أمنها ووحدتها حينما تستثمر قيمه ومبادئه الأصيلة، أو في إثارة الفرقة والنزاع والفتنة فيها حينما يساء ذلك الاستثمار.

وبالجماعة يتحقق تدين الناس العام في مرافق الحياة المختلفة، في تعاونهم على البر والتقوى، والتناصح فيما بينهم. ولهذا حث الشرع الحكيم على ضرورة لزوم جماعة المسلمين وعدم الخروج عنها؛ كما حث على مبدأ التعاون والتكافل، وصلة الأرحام، وفعل الخير والإحسان إلى الغير...؛ وكل صيغ التقارب والتواد والتراحم فيما بين الناس حتى تسود جماعتهم الألفة والمحبة، ويقل فيها التنافر والخصومة والتنازع.

إن شعائر الدين كلها عبادات تؤدى جماعة: صلاة، وصوما، وزكاة، وحجا...، حيث يكون الدين سببا في تحصيل أعلى مراتب وحدة الجماعة وأمنها وانسجامها واستقرارها. ومن الآيات الموجبة للزوم وحدة الجماعة ونبذ الفرقة والاختلاف، قول الله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران/103). ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام/159). وفي الحديث الشريف: «... **فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، ومن الاثنين أبعد. فمن**

سَرَّته حَسَنته، وساءَتْه سيئتُه فهو مؤمن».[1] ومن ذلك قول النبي ﷺ لحذيفة بن اليمان لما سأله عن تعاقب الخير والشر: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**».[2]

• من ثمار التدين الفردي والجماعي

إن للتدين الفردي والجماعي مزايا وثمارا عدة يتكاملان فيها، فكما أن التدين الفردي يشعر صاحبه بعظم وثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه، وأنه محاسب على كل كبيرة وصغيرة، بحيث يكون لذلك انعكاس كبير على سلامة قوله واستقامة سلوكه؛ فإن التدين الجماعي هو محصلة تدين الأفراد؛ لكن تنظيم الشرع لهم داخل أطر جماعية، من شأنه زرع قيم وأخلاق المحبة والأخوة والتآلف والتعاون فيما بينهم. كما يعين ذلك على سلامة واستقامة معاملاتهم الجماعية من الوفاء بالعهود، وأداء الديون والأمانات، والسعي بالقسط، والإخلاص في الأعمال وإتقانها. وإن كل فضائل الخير والبر ومحاسن الأخلاق التي دعا إليها الإسلام، إنما هي لإسعاد جماعة المسلمين وتحسين معاشهم والرقي بعمرانهم وازدهارهم ليحيوا الحياة الطيبة التي وعدهم، فضلا عن ثوابهم الموفور لهم إلى يوم لقاء الله تعالى في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ اَوْ انثىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْۥ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل/97).

---

(1) الترمذي، **كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ**، باب لزوم الجماعة، برقم 2165، والنسائي، **كتاب عشرة النساء**، باب ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر عمر فيه، برقم 9219.

(2) البخاري، **كتاب الفتن**، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، برقم 6673، ومسلم، **كتاب الإمارة**، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، برقم 4890.

15. أثر وازع القرآن ووازع السلطان في ترشيد تدين الفرد والجماعة

من معاني الوَزْعِ في اللغة: «كف النفس عن هواها»[1]، ويحمل كذلك على: المنع والنهي والزجر، ومنه: وزَع الظالمَ إذا كفه ومنعه، أو زجره ونهاه. وعلى هذا الأساس يُحمل وازع القرآن ووازع السلطان معا، حيث يؤولان إلى نفس النتيجة التي هي منع وكف كل أشكال الأذى، والظلم، والفساد، التي يقترفها بعض الناس ضد آخرين؛ لكن مع اختلاف بينهما، إذ إن مدخل القرآن إلى النهي عن سيء الأعمال، وزجر النفس عن اتباع هواها، هو قوة معنوية نابعة من إيمان وتقوى المتدين، وهذا أبلغ في التأثير على الناس وحملهم على الاستقامة الدائمة في ظاهرهم، الناشئة عن سلامة بواطنهم. أما مدخل السلطان، فقوة مادية قاهرة تلزم هؤلاء المخالفين بالانضباط للنظام العام والقانون إلزاما.

ولهذا اشتهر هذا الأثر عن سيدنا عثمان في أن من لم يكن القرآن له وازعا، كان له السلطان كذلك. حيث بدأت الشبه والمخالفات في الشرع تطل برأسها منذ أواخر عهد عمر بن الخطاب، واستفحلت كثيرا على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، بسبب المروق من الدين لدى بعض المتنطعين. فمن لم يستنر بنور القرآن، ويهتد بهديه ويتخلق بأخلاقه، وشذ عن ذلك شذوذا، لزم تدخل السلطان لقمع هذا الشذوذ ومنع تلك المخالفات وما يترتب عليها من مفاسد ومضار على جماعة المسلمين.

---

(1) انظر مثلا **لسان العرب** (وزع).

• أثر وازع القرآن في ترشيد التدين، ووازع السلطان في حفظ النظام

ينبني **وازع القرآن** على الوعظ والبيان والهداية والإرشاد، ولهذا فالقرآن كله موعظة وهدى وبيان، لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران/138)، ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (يونس/57).

فوازع القرآن إذن، متوجه إلى القلوب والعقول لإقناعها بأفعال الخير والصلاح، وكفها عن أفعال القبح والفساد؛ كما أنه متوجه إلى تزكية النفس والباطن حتى يستقيم الحال والظاهر. فخوف الله تعالى، واستحضار رقابته، وتقوى المؤمن التي هي اتقاء للشبهات والشهوات، كل ذلك من وازع القرآن على الإنسان. ولقد بين الإمام الشاطبي أن «المقصد الشرعي من وضع الشريعة، إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدا لله اختيارا كما هو عبد لله اضطرارا»[1].

أما **وازع السلطان**، فقوة النظام والقانون المادية التي تُلزم الناس بالانضباط إليها، وحفظ الأمن وسلامة الوطن والمواطنين، وضبط مرافق الحياة العامة. ولهذا يُحمل الناس على الالتزام اضطرارا وليس اختيارا، ولو استدعى الأمر الزجر والردع بالإكراه البدني بالنسبة للخارجين والمنتهكين للحدود. وهذا المعنى هو ما قرره عالم العمران العلامة ابن خلدون حينما قال: «إذا تم عمران العالم بهم [أي الناس]، فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، لما في طباعهم

(1) **الموافقات**، 168/2، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت.

الحيوانية من العدوان والظلم؛ (...) فيكون ذلك الوازع واحدا منهم، له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان». [1] وإذا كانت عقوبات مخالفات وازع القرآن في معظمها أخروية آجلة، حيث تترتب جزاءات العقاب للمسيئين والثواب للمحسنين؛ فإن عقوبات مخالفات وازع السلطان دنيوية عاجلة.

إن نصب الإمامة العظمى التي لها وسائل حفظ كليات الشرع، بحماية الدين والحياة والعقل والمال والعرض، من الضرورات الشرعية الواجب إقامتها كذلك. ويدخل في هذا الباب اعتبار مفهوم الدولة الحديثة التي تقوم بهذا الواجب في حفظ هذه الأمانات، بأجهزتها المختلفة، جيشا وشرطة ومؤسسات في الصحة والقضاء وباقي القطاعات؛ كما تدخل فيه التشريعات المختلفة من نظم وقوانين مستحدثة. فكل ذلك مادام خادما لتلك الكليات، فهو معتبر شرعا ومصلحة، لأن بناء الدولة في الإسلام الأصل فيه الاجتهاد في رعاية الحقوق والمصالح؛ فكل ذلك شرعي من جهة كونه وسائل تخدم مقاصد الشريعة فتأخذ حكمها.

ويتوجب ههنا درء منازعتين، إحداهما لبعض التيارات الدينية المتشددة، التي لا ترى نموذجا للدولة والنظام إلا فيما تقدم في التاريخ الماضي باستنساخ النماذج كما هي وليس حتى باستلهامها، وذلك دون اعتبار للتطور الحاصل في الزمان والمكان. والأخرى لتيارات علمانية ولا دينية متشددة كذلك، لا ترى ضرورة لحضور الدين في نظام الدولة، وتستبعد كل منظومته القيمية

(1) **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، 1/ 56، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية 1408هـ – 1988م.

والأخلاقية، وإمكاناته التأطيرية في بناء الوعي والتصور، وتقويم السلوك الاجتماعي والمدني، فضلا عن حضوره التاريخي في بناء الأمم والحضارات.

• من ثمار تكامل وازع القرآن ووازع السلطان

تجتمع وظيفة الوازعين في تحصيل ثمار ونتائج عديدة، في ترشيد تدين الفرد وتدين الجماعة. فوازع القرآن يُرشد إلى التدين الوسطي المعتدل، المبني على يسر وسماحة الشريعة، وعلى مراعاتها لقدرة المكلف، وترخيصها له في حالات العجز وعدم الاستطاعة، برفعها الحرج عنه؛ وتشديدها من جهة أخرى على النهي عن الغلو والتنطع في الدين، وعن الإسراف والتبذير في ملذات ومتع الحياة؛ وتأكيدها على سلامة المعاملات بين المسلمين، وحملها لهم على محاسن الأخلاق ومكارمها، بحيث يكون ذلك كله نابعا من إيمان عميق ونفس مزكاة، ورضى ومحبة، ويقين وطمأنينة، إلى ما شرع الله تعالى لعباده وما بينه رسوله الكريم ﷺ في سنته.

إذا كان الأمر كذلك في وازع القرآن، فإننا نجد وازع السلطان يعضد هذه المعاني نفسها، في ترشيد تدين الإنسان وسلوكه العام فردا وجماعة؛ ذلك لأن تنظيم الحياة المدنية بحاجة إلى وازع خارجي يحفظ نظامها وأمنها، ويدرأ عنها المخاطر والآفات التي تتهددها.

إن وازعي القرآن والسلطان، وازعان متكاملان، وليسا متقابلين ضرورة كما يتوهم البعض؛ ففي القرآن دعوة صريحة إلى النظام وطاعة أولي الأمر، وإلى رعاية مصالح العباد، وحماية أمنهم، وصون حقوقهم، والتكافل في

معاشهم، والسعي بالمعروف فيما بينهم. كما أن أصل وظيفة وازع السلطان في السياسة الشرعية، إنما هو حماية الملة والدين، وسياسة الدنيا به، والتمكين لقيمه وأحكامه، ولا شك في أن لزوم الناس واتعاظهم بالوازعين معا فيه صلاحهم في دنياهم ومعاشهم حيث أمنهم وتعاونهم، وفلاحهم في أخراهم ومعادهم حيث ثوابهم وجزاؤهم.

16. ضرورة تضافر وازع القرآن ووازع السلطان لضمان حياة طيبة للجميع

إن الأصل في فعل الطاعات وأعمال الخير، والوقاية من الفواحش والمنكرات، هو غرس الإيمان في القلوب، وتزكية النفوس بإعمال وازع القرآن والتوجيه والإرشاد والموعظة الحسنة، لكنَّ كثيراً من الناس، وإن كانوا يؤمنون بالله ورسوله في الجملة، تغلبهم نفوسهم الأمارة بالسوء، وتستهويهم الشهوات، وتسيطر على تصرفاتهم أهواؤهم، ويغويهم الشيطان، فإذا وُعِظوا صَمُّوا آذانهم عن سماع الموعظة، وإذا أُمِروا بالمعروف تمادَوْا في الصدّ عنه، وإذا نُهُوا عن المنكر بالغوا في إتيانه؛ فيَسعَون في الأرض فسادا. وذلك أن كثيرا ممن يصرون على العدوان ومخالفة القوانين، ولا يستجيبون للنصح والتوجيه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يحسم مادة شرهم إلا إعمال وازع السلطان بتطبيق شرع الله تعالى الرادع، وتطبيق القوانين التي تحفظ النظام العام للدولة؛ يقول الإمام الشاطبي: إن « ... الإعذار والإنذار الأخروي قد لا يقوم له كثير من النفوس، بخلاف الدنيوي، ولأجل ذلك شرعت الحدود والزواجر، وإن الله يَزَعُ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، فالمبتدع إذا لم ينتهض لإجابة دعوته بمجرد الإعذار والإنذار الذي يعظ به، حاول الانتهاض بأولي الأمر، ليكون ذلك أحرى بالإجابة»[1]، فهؤلاء الذين لا يزجرهم عن جرائمهم الإيمان وما يثمره من الخير، لابد من زجرهم بما شرعه الله في القرآن، وكلف بتطبيقه ولي الأمر؛ فما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن، ولابد

(1) **الاعتصام**، 293/1، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1429هـ– 2008م.

من سلطان في كل زمان يعمل بالعدل والإحسان وينهَى عن البغي والعدوان، إذ العدل ميزان الله تعالى وضعه للإنسان، لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ (الرحمن/7).

• الدولة القوية أساس الأمن من الفتنة

إن الحياة الطيبة التي وعد الله بها عباده المؤمنين، تتأسس أصالة على معاني التوحيد وقيم الدين وأحكام الشريعة التي تحفظ على الناس دينهم، وتعصم دماءهم، وتستر أعراضهم، وتضمن أموالهم، وتصون عقولهم. والسبيل إلى ذلك هو انتهاج طريق الوسطية والاعتدال المنتزع من وازع القرآن المعزز بوازع السلطان. وإن تضافر هذين الوازعين يتوقف على أن يقوم الجميع بواجبه، وأن يتم تجديد عمل الدولة بالاجتهاد في اتجاه خدمة الدين وضمان شروط الحياة الطيبة للمؤمنين.

♦ ضرورة انخراط الأفراد في دعم الدولة المجتهدة لتحقيق كليات الدين

لابد من استحضار الحقيقة المتمثلة في أن إعمال وازع القرآن يتوقف على شروط لا تتوافر إلا بإعمال وازع السلطان؛ أي الدولة القوية المجتهدة في إقامة العدل، ولهذا فإن من الواجب على المؤمنين المخلصين العاملين أن يتمثلوا هذا الأثر «إن الله لَيَزَع بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن»[1]، وأن يدعموا سلطان ولي الأمر الذي بايعته الأمة، وسلطة الدولة التي انتخبها الناس، لدفع الفتنة، والتصدي لكل إفساد يعرقل التنمية، ويعمق جروح ومعاناة

(1) **أدب الدين والدنيا**، للماوردي، ص 135، دار مكتبة الحياة، 1986م .

الضعفاء والمحتاجين؛ بخرق القوانين وهضم الحقوق ونشر الخوف بين الناس ونهب المال العام. وهذه هي وظائف الدولة الحديثة ومهامها التي حددها لها القانون الذي يجلب المصالح للأمة ويدفع عنها المفاسد. فإن الفساد الذي ينتج عن فتنة عصيان وازع السلطان أعظمُ مما يُجتلَب من منافع، إن وجدت؛ لهذا قال الحافظ ابن رجب: «وَأَمَّا السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِوُلَاةِ أُمُورِ الْـمُسْلِمِينَ فَفِيهَا سَعَادَةُ الدُّنْيَا، وَبِهَا تَنْتَظِمُ مَصَالِحُ الْعِبَادِ فِي مَعَايِشِهِمْ، وَبِهَا يَسْتَعِينُونَ عَلَى إِظْهَارِ دِينِهِمْ وَطَاعَةِ رَبِّهِمْ»[1]. فوجب توعية الناس بضرورة طاعة ولي الأمر وعدم الخروج عليه؛ خاصة وأن بلدنا هذا قد أنعم الله تعالى عليه بولي أمْرٍ بايعته الأمة، وهو يجتهد في حفظ دينها ورعاية أمور دنياها؛ فصارت طاعته واجبة والخروج عليه خيانة.

• وجوب نصب الإمام ودعم الدولة المجتهدة في تحقيق كليات الدين

من أجل التأسيس للحياة الطيبة لا يمكن التعويل على مجرد إرادة الأفراد، لأن الناس بحاجة إلى مقومات الحياة الجماعية، ومنها الأمن والعدل وكف يد العدوان؛ لهذا أجمع العلماء على وجوب نصب الإمامة العظمى، القادرة بوسائلها على ضمان حفظ كليات الشرع من حماية الدين والحياة والعقل والمال والعرض. فإعمال القانون والقوة لحفظ هذه الكليات هو وازع السلطان. فوجوده واجب ديني وضرورية عرفية.

(1) **جامع العلوم والحكم**، 767/2-768، دار النشر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1424هـ - 2004م.

- **من المهام الأساسية للدولة السهر على ثلاثة أمور: الأمن ودفع الفتنة، والعدل، وإصلاح المعاش**

إن الدولة هي صاحبة الاختصاص في الأمر بالمعروف على مستوى الجماعة، من خلال المؤسسات التي ينشئها القانون وينظم اختصاصاتها. وإن من أعظم مظاهر وعي المؤمنين الصادقين نصحهم لولي أمرهم ومساندته، باعتباره الجهة المخول لها إعمال المعروف على مستوى الجماعة من خلال المؤسسات، التي يتجسد فيها نفع الأفراد بإصلاح جماعتهم، وحملها على الحق بإلزامها باستثمار قيم الدين في المجتمع. وينبغي أن يتضح في أذهان المؤمنين أن عددا من شروط الدين وحرماته مكفولة بوجود هذا الوازع، لذلك فمؤسسة الحكم (الإمامة العظمى) ووسائلها بأشكالها العصرية هي في صميم الضرورات الشرعية، وينبغي إيقاظ أذهان كثير من المسلمين ليتعرفوا على الدولة الحالية باعتبارها قائمة على هذه الأمانة، بجيشها وحكومتها وشرطتها وأجهزتها ومؤسساتها وبرامجها وآلياتها على أنها تخدم الدين والشرع على درجات من الاجتهاد. ولا يمكن للمؤمنين أن يقبلوا في هذا العصر بصدد هذا الأمر مقولات كل التيارات الحديثة المنازعة والمناهضة لهذه الحقيقة الشرعية والعرفية؛ مهما كانت انتماءاتها واتجاهاتها؛ وذلك أنه لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمامة، كما ثبت عن عمر ﷺ؛ لذلك جعلت إمارة المؤمنين المبنية على البيعة الشرعية أساسا لتنفيذ مقتضى العقد الاجتماعي المتجدد بالاجتهاد، الذي يربط بين الراعي والرعية، لإقامة مظاهر الشريعة، وتثبيت الأمن بجميع مستوياته؛ وقد تكرس هذا المعنى في ثقافة المغاربة منذ زمن المولى إدريس الأول رحمه الله إلى اليوم، فلا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، وكأن

لسان حالهم يقول في كل حين: الدين أس، والسلطان حارس، وما لا أس له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع.

- **من مقومات الحياة الطيبة مؤمن يجتهد في تزكية نفسه، وجماعة تراجع نمط عيشها باستمرار**

إن التوجه العام الذي غلب على كثير من الناس في العصور المتأخرة، والذي يكرس مركزية دور الفرد في الدين، أبان عن محدوديته في إصلاح المجتمع وتعميم الأخلاق وقيم الدين فيه؛ إذ تبين ضعف التزام الأفراد بالقيم، وتأرجح تدينهم في عدد من المجالات، حسب ظروف البيئة السياسية والاقتصادية التي تتحكم فيهم، بالإضافة إلى محدودية تأثير بعضهم في بعض؛ لأن العمل بالقيم عند الفرد ليس فطريا ولا طبيعيا، بل هو مرهون بتقوية الوازع الديني للتغلب على نوازع النفس ومصايد الهوى. أما الدولة فلها الوسائل التي ليست لغيرها في وضع القانون المناسب وبناء المؤسسات، وفي التصرف لخلق البيئة السياسية والاجتماعية المناسبة للتدين العام. ومعلوم أن من وسائل الدولة لإيجاد هذه البيئة المناسبة توفير الأمن والاستقرار والتعليم والتأهيل...، بالإضافة إلى امتلاكها صلاحية إعمال آليتي التنمية والوقاية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

17. احترام القانون

• القانون دليل تحضر الجماعة وعنوان رقيها

إن استحضار المحاولات الإنسانية لحل مشكل الأمن والعدل والأخلاق التي اجتهدت في تثبيتها الدول في دساتيرها المنظمة لشأن الحياة المشتركة، يدل على أن تحكيم القانون كان بعد تجربة مريرة مع الاعتداء والاستبداد والحكم المطلق الذي يغيب فيه العدل الاجتماعي ويقبل فيه استعباد الأفراد؛ ولعل من أرقى ما توصلت إليه المذاهب الفكرية والسياسية في الأعصر الأخيرة، أنها استطاعت بتأثير العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية وإعمال الأصول الأخلاقية الدينية المتوارثة، أن تحدث نهضة عظمى أدت إلى خلق قوى جديدة في إطار الدولة القومية. يحكمها القانون. لتحل محل قوة قديمة لم يعد لديها القدرة على التكيف مع طبيعة الدولة الحديثة[1].

وقد صار إعمال هذه التجارب المهمة ضرورة من ضرورات تنظيم شأن الحياة العامة للمجتمعات، لتقوية الرابطة الاجتماعية، وترقية مستوى العيش الجماعي الذي يرتفع فيه الحرج وتطرد به دواعي التعسير؛ والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها؛ ولا يليق به احتقار الاشتراع[2] المتواصل المأذون فيه من الله تعالى المفوض إلى الأمة بإقرار أهل العلم والرأي ومتفقهة الشورى، لتلبية احتياجات الدولة فيما تقوم سياستها على أساسه في أفق

---

(1) ينظر **الظاهرة القومية مدخل إلى الفكر القومي**، علي عباس مراد، وعامر حسن فياض، ص. 68.

(2) المراد بالاشتراع وضع الأحكام التي تحتاج إليها الحكومة. ينظر **الخلافة** لرشيد رضا، ص. 90.

«إشاعة العدل في الناس، وحفظ الأمن والنظام وصيانة البلاد ومصالح الأمة وسد ذرائع الفساد فيها...[1]».

وخلاصة القول أن القوة التي هي عماد الحكم، لا تقوم إلا بطاعة القانون الجامع لقواعد السلوك الاجتماعي؛ وطاعة القانون. في شريعتنا. جزء من طاعة الله، لأن الحاكم في دولة الإسلام يستظل بظل الله، ولذلك يجب أن تكون ثمة سلطة تقرر بين الناس ما هو الحق وما هو الباطل، وما هو المعروف وما هو المنكر، وما هو الحسن وما هو السيئ، وما هو متفق مع قانون الطبيعة وما هو مخالف له، وأن يكون الشعب خاضعا لقوانين الدولة، «ملتزما بقواعدها المطبقة الحاكمة على سلوك الأفراد في الجماعة، المقترنة بالجزاء الواقع على المخالف، تقريرا للحقوق والواجبات على الأشخاص والمجتمع، إذ ليس هناك حق أو واجب إلا بموجب القاعدة القانونية[2]».

مشروعية القانون

لا ينبغي أن تخفى على المواطن السوي الحريص على تماسك جماعته، وضبط علاقاتها، وانتظام شأن جماعتها، واحترام سلطتها، موجبات تشريع القوانين العامة منها والتفصيلية، ابتداءً من الدستور إلى القوانين التنظيمية والمهيكلة، نزولا إلى المراسيم والقرارات الإجرائية التي يرد إليها كل شيء، «مثل القوانين المنظمة لمجال البناء حفاظا على جمالية التجمعات السكنية، واستحداث قوانين السير وتحديد السرعة القصوى، وسن قوانين

(1) ينظر **الخلافة** لرشيد رضا ص. 90 بتصرف.

(2) ينظر **المذاهب الاجتماعية الحديثة** لمحمد عبد الله عنان 14، و**المدخل لدراسة القانون** لإدريس العلوي العبدلاوي 32/1 بتصرف.

منع تلويث المجال، وقوانين حفظ الصحة، وسلامة الأطعمة ومراقبة مدى صلاحيتها للاستهلاك، وخلوها من الأمراض الوبائية والمتنقلة، وذلك بمنع تهريبها ومنع ذبحها ذبحا سريا لا يراعي الشروط الصحية، إلخ...[1]؛ «إذ لكل منها موجب شرعي من حيث الموقع الراجع إلى أصل أو معقول أصل. أي القياس. أو استصحاب حال، أو إلى الاستحسان، والمصلحة الشرعية، والمبادئ الخلقية، والقاصد إلى «صون أصلين كبيرين: أولهما: حريات الأفراد وتحقيق مصالحهم، وثانيهما: حفظ كيان المجتمع وكفالة تقدمه وارتقائه[2]»»؛ والمصلحة الحافظة لهذين الركنين شرع ثابت بلا خلاف، ولقد بين ذلك علماء الأمة في فتواهم المضمنة في «**جواب المجلس العلمي الأعلى عن استفتاء أمير المومنين حفظه الله حول المصلحة المرسلة في علاقتها بقضايا تدبير الشأن العام**»، «وهي من أول ما بدأوا به بيان سبيلهم في فهم الشأن العام؛ ومن جبهات التوعية المذهبية الكبرى التي يعمل فيها العلماء؛ جبهةِ التبيين من أجل إزالة هذا الفهم الذي ينظر إلى القانون على أنه دخيل مؤقت إلى أن يأتي من يستبدل به الشريعة[3]»».

وقد بينوا في مَجُوبِهِم أن تدخل الإمام الأعظم في التشريع يمتد إلى ثلاثة مجالات: مجال ما لا نص فيه من الشرع، ومجال ما كان موضع خلاف فقهي تباينت فيه الآراء، ومجال ما كان فيه تحقيق مصلحة حقيقية معقولة ملائمة لمقاصد الشرع راجعة إلى حفظ أمر ضروري أو إلى رفع حرج لازم في الدين.

---

(1) جواب المجلس العلمي الأعلى عن استفتاء أمير المومنين، ص. 37 بتصرف.

(2) ينظر **المدخل لدراسة القانون** لإدريس العلوي العبدلاوي 44/1.

(3) **سبيل العلماء** ص. 112.

• ثمرات احترام القانون

إن القوانين الجامعة للمقررات الصحيحة للإرادة العامة التي تصدر في المملكة وفق أصل المصلحة أحدِ أصول الأحكام الشرعية، قوانينُ شرعية «توفق بين مصالح الأفراد في المجتمع لتيسير حياتهم الجماعية وتوفير هناء صلاتهم الاجتماعية، وإقامة التوازن بين المتعارض من حرياتهم، والمتباين من مصالحهم، عن طريق تنظيم علاقاتهم بتعيين ما يجب على كل منهم وما يجب له، أي بتحديد ما يتمتع به كل فرد من حقوق[1]»، كما أنها تثبت الانتماء إلى الأمة؛ وتحقق العدل الأهلي، والسلم الاجتماعي، والأمن الجماعي.

وهي بضمان إمارة المومنين، قلب الدولة، لا يمكن أن يصدر عنها ما يتناقض مع حكم قطعي في الدين شعار الدولة ونسبها الأصيل. وهي أيضا مصلحة معتبرة في الأقضية المختلفة المعالجة للأمور المستجدة التي اقتضتها طبيعة الحياة المعاصرة التي لا حدود للتأثيرات الداخلية الخارجية فيها؛ لأنها تنظم شأن الحياة بما يُؤَمِّن من الفتنة ويحمي من الفرقة وينظم حياة الجماعة، حتى لا يكون المجتمع مجتمعا جائرا، يحرم أعضاؤه من حقوقهم الفطرية، وحرياتهم الشخصية وقيمهم الجوهرية المركزية الإيجابية، كالعدل في الأحكام، والتساوي في الحقوق، والأدب في المعاملات، والأمن من الموبقات، والحرية في التصرفات، والحق في المشروع من التملكات...

(1) ينظر **المدخل لدراسة القانون** لإدريس العلوي العبدلاوي 35/1 بتصرف.

ثانيا:

مقتضيات الإيمان

18. الإيمان يعطي الحياة معناها

جميع الاعتقادات النظرية التي يصح بها إيمان المسلم المُعْمِل لحق النظر فيما يؤمنه غدا، ويصدق بها يقين الموقن المدرك بأن الله تعالى لم يخلقه عبثا ولا سدى، تحدد الأصول التي ينبغي أن يصدر عنها المستجيب في حياته، ويضمن بها الأمن بعد مماته، التي يخرج بها عن داعية هواه،ويدخل فيما ألزمه به مولاه، حتى يكون بذلك عبدا لله اختيارا، كما هو عبد لله اضطرارا، متحققا بغاية إيجاده ومتفطنا لمقصد استخلافه، الذي نبأ الله تعالى به في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ (الذاريات/ 56-57).

إن إدراك هذه الغاية من الخلق وإعمال مقتضياتها هي التي يتأسس عليها الإيمان الذي يثمر التوحيد الخالص والاعتقاد الصادق المقصود لهذا الدين القيم، المبين عن غاية الحياة وسرها وعن علة وجود الإنسان فيها، وكيف وجد، ولماذا وجد، وإلى أين يصير؛ التي توجب على العاقل إذعان نفسه للحق على سبيل الجزم، بالتعلق بالقرآن الكريم، تعلقا يتفرع عن الاعتقاد الجازم بأنه من الله تعالى، وأنه رسالة هداية لكل مكلف يبلغه خطابه، وأنه جامع لمحددات الإيمان المميزة لخطابه، والمفردة لبيانه... وأنه الحجة التي ينبغي أن تعقل وتفهم وتتدبر، حتى يصير القرآن في حياة المكلفين، كما أراده الله تعالى، إماما لا يقضى شيء في الحياة من جهة العقيدة أو العبادة أو المعاملة

أو الأخلاق، إلا بتزكيته، وثبوت صحة دلالة شهادته على صلاح الحال واستقامته به، للأمن من شدة محاججته التي نبه عليها النبي ﷺ في قوله: «**القرآن شافع مشفع، وماحل مصدق، فمن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره قاده إلى النار**»[1].

فبه إذن لا بغيره يدرك التوحيد الأصيل، ويظهر ما يقتضيه من التقرب النبيل، وتتحقق الهداية المجلوة، وتقام العبادة المرجوة، المشار إليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُومِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ۝ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالاَخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (الإسراء/9-10). وبه تتحمل المشاق، وتحمى النفس من العدمية ومستقبح العبثية التي تسوغ للإنسان أن يفعل ما يقبح في العقل في نفسه وغيره، وتدعوه إلى أن يعطل واجب تزيين إسلامه بعدله وبره بإخوانه، وإحسانه لإخوانه وبني جنسه.، اقتداء بالنبي ﷺ، نموذج رحمة الله تعالى، الذي تمثل القرآن الكريم، وأدى حقه تلقينا وتعليما ونفعا، حتى أمر الله تعالى باتخاذه إسوة حسنة هادية إلى الرشد الاعتقادي والعبادي والسلوكي في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَالْيَوْمَ ٱلاَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب/21).

• الحياة المبنية على الإيمان ليست كأي حياة

إن من أجل مقاصد هذا الاقتداء بالنبي ﷺ المشترط في الإيمان بمستلزماته الاعتقادية، والأحكام العبادية، والحقائق الأخلاقية، تطهير النفس، واستصفاء

(1) ابن أبي شيبة، **كتاب فضائل القرآن**، باب من قال يشفع القرآن لصاحبه يوم القيامة، رقم 30054، والبيهقي، في **شعب الإيمان**، باب فصل في إدمان تلاوة القرآن، برقم 2010.

السلوك، واستكمال الآداب، وإدارة التصرفات على رسم مكارم الأخلاق التي جعلها النبي ﷺ غاية بعثته، ورأس مهماته، وعنوان الصدق في الانتساب إلى ملته، ودليل معرفة الله تعالى ومعرفة حقوقه، في قوله: «**بعثت لأتمم حسن الأخلاق**»[1]؛ وقوله: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**» قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «**الذي لا يأمن جاره بوائقه**»[2].

ولا شك أن عناصر هذا التخلق الذي يقتضيه الإيمان الكامل، أداء الحقوق على الوجه الشامل، الجامع لمعنى الحياة المتخلقة التي يريدها القرآن من المكلفين، المحددة معالمها العملية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل/91)، التي نقل الحافظ ابن عبد البر أنها أجمع آية للبر والفضل ومكارم الأخلاق[3]، التي تظهر على المؤمن في أقواله وأفعاله وعلاقاته، بخلاف من شرد عن الله ورأى أن الدين ليس مصدرا للقيم الذي ينتظم بها شأن الحياة التي تنصلح به العواقب.

• الإيمان أمانة وتميز وعزة وأمن ورضا وهداية وعطاء

إن ثمرة الإيمان، تتجلى في التحقق بمكارم الأخلاق، الذي تدور عليه أحكام الشريعة ومكارمها المؤسسة على العلم الذي لا تقليد فيه، بحق الاقتداء بالنبي ﷺ في عبادته ورحمته وخلقه وسعة نفعه، وخدمته لغيره أيام دهره،

(1) الإمام مالك، **كتاب حسن الخلق**، باب ما جاء في حسن الخلق، برقم 1609.

(2) البخاري، **كتاب الأدب**، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، برقم 5670، ومسلم، **كتاب الإيمان**، باب بيان تحريم إيذاء الجار، برقم 181.

(3) **التمهيد**، 334/24، تحقيق وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، 1387م.

الذي اعتبره هذا الدين الحنيف عنصرا أساسيا في أداء حق العبادة وإعطائها المعنى الحقيقي في التوحيد والاتباع والمحبة والنفع ولزوم الجماعة، ونبذ كل ما يشوش على تآلفها وسكينتها ووحدة صفها، الذي يتحقق بإعمال قول النبي ﷺ: «**أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعِفّة في طُعمة**».[1] –أي في وجه المكسب–.

وبمثل هذه المكارم التي تمثل العنصر الجوهري في الدين إيمانا وعملا، تدرك الحياة الطيبة التي وعد الله بها عباده الصالحين في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ اَوْ انثىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ (النحل/97)، أي لنحيينه الحياة الروحية الحقيقية التي بها يصير المؤمن طيب القلب واللسان والجسد بما سكن في قلبه من الإيمان، وظهر على لسانه من الذكر، وعلى جوارحه من الأعمال الصالحة التي هي ثمرة الإيمان، وداخلة في اسمه، فهذه الطيبات كلها يقبلها الله عز وجل. ومن أعظم ما يحصل به طيبة الأعمال للمؤمن طيب مطعمه، وأن يكون من حلال، فبذلك يزكو عمله[2]، ويَرْشُد فعله، ويتعاظم بره، على الوجه الذي يتحقق به الاستخلاف الروحي في الأرض، التي لا يكاد يعكر عليه ما يعرض في مسار الحياة من صعوبات وابتلاءات، وأمور مقلقات معوصات، تهون حتما في نظر مالك هذه الحياة الطيبة المؤسسة على الرؤية التوحيدية المبصرة، لإحاطة العلم الصحيح أنها مقدرة سلفا، وأنها تحمل خيرا كثيرا عاجلا أم آجلا.

---

(1) أحمد، في **مسند عبد الله بن عمرو**، برقم 6652، والبيهقي، في **شعب الإيمان**، باب في حفظ اللسان عما لا يحتاج إليه، برقم 4801.

(2) **جامع العلوم والحكم**، 276/1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1424هـ – 2004م.

ولا شك أن لهذه الحياة الطيبة أثرها الاجتماعي في أداء مختلف الأمانات، التي بها يتزين التدين في أنظار الآخرين، تتحقق الأخوة بين المؤمنين، وتتوثق الصلة بين الموافقين والمخالفين، وتكون سمة المؤمن البارزة ظاهرة في استحضار جلال الله تعالى، وذكر نعمه، وحفظ حقه، والحذر من خلافه والسبق إلى فضيلة الإحسان بالأخلاق والأعمال والأقوال، وبذل الأموال وإسقاط الحقوق وإباحة المنافع والإعانة على الطاعات، والمساعدة بكل نفع ممكن يُكف به الأذى، ويُدخل به السرور على الناس كلهم.

19. التوحيد وعلاقته بالحرية

إن أجل ما ينبغي أن يؤسس عليه التذكير، وأسمى ما يبنى عليه التبيين والتبصير، التعريف بالله تعالى تعريفا ينسجم مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ويتناغم مع الاعتقادات العليا، التي دعا الله الخلق إليها، لطرد عوارض المخاوف والمنغصات، وتخفيف وطأة الحاجات وضغط التعلقات، وما ينتج عنها من صور الإهانة والاستعباد، وما تنتهي إليه من شقاء الأرواح والأجساد؛ وذلك من خلال إحصاء أسماء الله الحسنى وتبيين معاني صفاته العليا الذي جعله القرآن أُولَى مقاصد البعثة النبوية، وأَوْلى أولويات الدعوة المحمدية؛ لأنه يُبِينُ عن حقيقة الله في جلاله وجماله، ويكشف عن تفرد الله في جلاله وكماله، وما ينبغي أن يعلم من أمارات شكر أفضاله ونعمائه، وما يلزم أن يتمثل من سمات الخضوع وأمارات مرضاته.

وقد دعا الله سبحانه خلقه للتعرف على هذه السمات، وندبهم إلى فقه ما تحمله من نعوت وصفات في قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ...﴾ (الإسراء/110-111). وقول النبي ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسما: مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة**».[1]

ووجه ذلك أن ما كان من أسماء الله تعالى مما يجب على المؤمن الاقتداء بالله تعالى فيها وتمثل روح معانيها: كالرحيم، والكريم، والعفو، والغفور، والشكور، والتواب، وشبهها؛ فإن الله تعالى يحب أن يرى على عبده حلاها، ويرضى له

(1) البخاري، **كتاب التوحيد**، باب إن لله مائة اسم إلا واحدا، برقم 6957، ومسلم، **كتاب الذكر والدعاء والتوبة**، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، برقم 6986.

إظهار معناها في اعتقاده وقوله وفعله وما توحي به روح مبناها؛ وما كان منها مما لا يليق بالعبد تمثل معانيها: كالله، والأحد، والقدوس، والجبار، والمتعال، والمتكبر، والعظيم، والعزيز، والقوى، وشبهها؛ فإنه يجب على العبد الإقرار بها، والتذلل لها، والإشفاق منها؛ وما كان بمعنى الوعيد كشديد العقاب، وعزيز ذى انتقام، وسريع الحساب وشبهها، فإنه يجب على العبد الوقوف عند أمره واجتناب ما علم من نهيه.

إن استشعار خشية الله واستحضار لقائه، واستبطان رقابته، واستذكار جزائه، وخوف مقامه، وجه من وجوه إحصاء الأسماء، وشكل من أشكال التعرض لحسن الجزاء. «... والدليل على أن حقيقة الإحصاء والحفظ فى الشريعة إنما هو العمل بمضمونها، والتخلق بأخلاقها، قوله ﷺ فى وصف الخوارج: «**يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية**». فبين أن من قرأ القرآن و لم يعمل به لم ترفع قراءته إلى الله، ولا جازت حنجرته، فلم يكتب له أجرها، وخاب من ثوابها كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ (فاطر/10)، يعني أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب إلى الله تعالى...، ويوضح هذا أيضًا ما كتب به عمر بن الخطاب إلى عماله: إن أهم أموركم عندي الصلاة، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه.[1]

و لم يرد عمر رضي الله عنه بحفظها إلا المبالغة فى إتقان العمل بها من إتمام ركوعها وسجودها وإكمال حدودها [وإظهار ثمارها بالابتعاد عن كل ما يضادها من الكذب والخيانة والتكبر...]، لا حفظ أحكامها وتضييع العمل بها».[2]

(1) الإمام مالك، **كتاب وقوت الصلاة**، باب وقوت الصلاة، برقم 6.

(2) **شرح ابن بطال**، 421/10، مكتبة الرشد، الطبعة الثانية 1423هـ – 2003م.

• التوحيد يحمي من الشرك الخفي، ويعصم من تأليه الهوى

إن التعرف على الله تعالى من خلال ما دل عليه من أسمائه، والعروج إليه عن طريق ما عدد من صفاته، مفتاح التحقق بصدق العبودية المؤسسة على الطاعة المطلقة في كل فروض الإسلام، والأداء العام لحقوق الأنام، بشرط التواصي بالحق والتواصي بالصبر اللذين جعلهما الله تعالى أساسا في تثبيت الإيمان والمداومة على العمل الصالح –سر قوة المؤمن– المحقق لواجب الاستخلاف في الأرض، الذي يثمر التحرر الكلي من الشرك الخفي مثل عبادة البطون والفروج واتباع المضلات، وطاعة الأهواء، والجريان خلف الميول، وما تدعو إليه الغرائز، واستمراء الجهل، والحقد، والغل، والحسد، والبغي، والكبر، والعجب، والطمع، والخوف، والركون إلى الجاه، والشهوة المحرمة، وتطلب التميز على الناس بكل غرور.

فالتخلق المقصود أصالة من الابتعاث لا تُبلَغُ غايته في الاستقامة الجامعة، إلا من خلال التحقق بمعاني أسماء الله الحسنى، وتمثل ما يمكن تمثله من معاني مبانيها، ودلالات مراميها، المنزلة من النفس منزلة الأمر الذي يحلها من القيد والأسر، ويؤمنها من المخاوف، ويحدد لها الحاجات، ويضبط لها صنوف التعلقات، ويحررها من بلية الهوى الرذي، والاستعباد لمستكره الشهوات، والاتباع لمستقبح الرغبات.

• الإيمان يعطي لحياة المؤمن معنى خاصا لا يوجد عند غيره

إن عنوان صدق العبد في تدينه، وإخلاصه في تقربه وتألهه، تَحَرُّرُه من شر نفسه بخالص توحيده، بتلبسه بمرادات ربه، وسبقه إلى صالحات شرعه،

وخروجه عن داعية هوى نفسه الذي لا يتم على الوجه الأكمل إلا بتنزيل معاني أسماء الله تعالى، المعرفة للعاقل بأصله ووظيفته، ومنتهى كدحه، وحاجيات هذا المنتهى علما وعملا واعتقادا، وتملكه سكينة القلب وطمأنينته ورضاه، وتعلمه أن كل ما سوى الله تعالى لغو، وتبصره بأن كل صفة أثر صفاته تعالى، وكل فعل أثر أفعاله تعالى، فيتحبب إليه بذلك أداء حق الله تعالى الذي من أجله خلق الخلق ومنح الرزق، وتكرم بالإنعام، وإتيان حق عباده الذين أوجب سبحانه الإحسان إليهم بما يستطاع من الإحسان والإكرام.

وبهذا التعرف العلمي والعملي تسلم الروح، وتظهر حقيقة التوحيد المُحَرِّرِ على الفرد، فتشعره أنه مخلوق مكرم، له مكانة مهمة في هذا الكون، وتمنحه معنى الحياة وتزيل عنه عبثيتها، وتحرر نفسه من أسر شهواتها، وما تميل إليه طباعها، أداء لحق الله تعالى في الاستجابة، ودخولا في أمره بالإنابة، وما يُعْظِم قدر الإثابة، إعمالا للقلب والفكر في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة/20). وبراءة من اتباع الهوى المذموم المضاد للحق، الداعي إلى الانقياد إلى طاعة الأغراض العاجلة، واتباع الشهوات الزائلة، الذي شرط الله نهي النفس عنه في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات/39-40).

كما يظهر أثر هذا التوحيد على الجماعة بتحقق أخوتها الإنسانية، وترسخ وحدتها الحقوقية، وتوثق صلاتها الاجتماعية، القائمة على مبدأ الإنصاف الذي تُؤَدَّى به الحقوق وتُحْفَظ الأقدار، وتعرف منازل الناس وما يليق بهم.

• الإيمان يولد القيم وينظم شأن الحياة

لقد صح في حديث عمار بن ياسر ﷺ قوله: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار»[1] الذي يدل على أن هذه الكلمات الثلاث الجامعات، تطبيق حيوي لمعنى التوحيد المُحَرِّر المُوَلِّدِ للقيم، والمثبت للمبادئ والمنظم لشأن الحياة؛ لأنها جمعت أصول سعادة الدنيا، وأركان سعي الحياة الأخرى ؛ فإن الإنصاف يقتضي أن يؤدى إلى الله تعالى جميع حقوقه، ويُؤتى ما أوجبه منطوق رسول الله ﷺ ويجتنب جميع ما حرمه عليه، ويُعطى إلى الناس جميع حقوقهم، ولا يطْلُبُ ما ليس بحق، وينتصف من النفس للنفس، حتى لا تقع في قبيح مرذول، أو تصل إلى ذل –عياذا بالله– مَهُول.

وأما بذل السلام للعالم فيتضمن ألا يتكبر على أحد، ولا يدعي أنه ذو عدد، وألا يكون بينه وبين غيره أي جفاء، ولا يجري بينه وبين سواه أي اعتداء، يمتنع من السلام عليه بسببه، ويحول بينه وبين واجب ولايته وحبه، أو يمنع من مسالمته ومداراته وبره.

وأما الإنفاق من الإقتار، والجود مع وجود الإعسار، فيقتضي كمال الوثوق بالله، والاعتماد عليه، والرجاء فيه وابتغاء ما عنده، والتوكل عليه وحده، والاستغناء الكلي عمن دونه، والشفقة على المسلمين، والرقة للمؤمنين، وحسن عشرة المباينين والمخالفين، وسد حاجات الناس أجمعين، موافقين

---

(1) البخاري، **كتاب الإيمان**، باب إفشاء السلام من الإسلام، و**شعب الإيمان**، للبيهقي، باب في زيادة الإيمان ونقصانه وتفاضل أهل الإيمان في إيمانهم، برقم 49.

ومخالفين، استجلابا لرحمة أرحم الراحمين، واستمطارا لفضل رب العالمين، في أفق الاندراج في صنف الفائزين، والدخول في طبقات خلص المفلحين، الذين مدحهم الله تعالى في قوله المبين: ﴿وَالذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالإِيمَنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُوثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُّوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر/9).

إن هذه الكلمات الجامعات لأصول الإيمان يحصل بها الانسجام بين المبادئ العقدية ومسائلها، وبين المنظومة الفكرية ولوازمها، وبين الأبعاد العقدية والتصرفات العملية، التي تثمر الوئام بين شعب الإيمان، وبين الأخلاق والقوانين والأحكام، المرتبطة بالسلوكيات النفسية والاجتماعية، والتصرفات الاقتصادية والتدبيرية، وتفرض سلوك مسلك التوسط والاعتدال الذي تنتفي معه كل أشكال التعظم والعلو، وتختفي به صور البغي والغلو، وتقبح به جميع قذائف التبديع والتكفير، وتُدرأ كل مساعي الإرهاب والتقتيل.

20. التزكية وعلاقتها بالتربية على المسؤولية

إن أجل مهام الأنبياء، ومن اقتدى بهم من خاصة الأولياء والأصفياء، تحقيق مقصد التزكية القلبية وتثبيت معالم التربية العملية، بمساعدة المكلفين على تنمية الغرائز وتقويم الملكات، وتطهير النفوس من بدع الاعتقادات، ومساوئ الأخلاق والتصرفات، وقبيح الأعمال والأقوال والعلاقات، في أفق أن تتعرف النفس المستجيبة بذلك على نقائصها التي نشئت عليها، ومعايبها الشهوية التي تميل إليها، ثم تتحلى بمكارم الأخلاق التي لا تستغني عنها، لِتُحَصِّل مقاماتها التزكوية، وأحوالها التنموية التي ينبني عليها المقصود من مشروع التخلق في الإسلام، الذي يجعل المتحقق به ذاكرا لعهده بينه وبين خالقه، مراقبا لمختلف تصرفاته في محيطه، مستحضرا لنظر ربه في أحواله، مستشعرا لتمام إحاطته بخفي أمره، وعادل جزائه، الذي يُضمن به بلوغ لذة الطاعة عند العزم على فعل ما يطاق من الخُيور، وعند القصد إلى ترك ما يُعْلَم من مستقبح الشرور.

وقد أخبر الله تعالى أنه بعث نبيه ﷺ لتحقيق هذه المقاصد في النفوس المدعوة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة/2)؛ فكان من لوازم هذا الابتعاث الدعوة إلى تحقيق المقصود منه بالتمثيل والتلقين والتمرين الجامع لأساسيات الإصلاح النموذجي الذي ميز البعثة الخاتمة رسالة وأتباعا، وخصها بنعمة الظهور على الدين كله شرعة ومنهاجا، انطلاقا من المرتكزات الجامعة لأصول سبيله التي تذرع بها النبي ﷺ بوحي من ربه لتكوين ذلكم الجيل النموذجي

الذي يدل تألقه على مستوى رعيه لمسؤولياته التي سيسأل عنها في الاعتقاد والعلم والعمل وقدر النفع.

• التزكية طهارة من الدنس، وأمن من اتباع الهوى

إن دعوة النبي ﷺ القائمة على مقصد التلقين والتنزيل والتزكية، أيقظت المستجيبين لها إلى أنهم خلقوا حنفاء مسلمين بفطرتهم، وأنهم كلفوا مسؤولين عن تصرفاتهم، محاسبين على قصود أعمالهم، لا تبرأ ذمتهم إلا بأداء حق الاستخلاف الحق، المباين لعهد الخرافات، والمخالف لزمن تسلط الشهوات، والرافض لسيئ العادات؛ هذا الاستخلاف الذي يقتضي إفراد الله تعالى بالعبودية، والتسليم له بالسيادة على كل الأكوان المسخرة، وتخصيصه بالمحبة المستحقة التي لا يعلوها شيء مما يهواه الإنسان وينجذب إليه من متع هذه الحياة الحلوة الخضرة، بتأثير الأنجاس الكامنة فيه، لسوء المنشأ، أو لغلبة الشهوة، أو للإهمال وقلة التحفظ.

ولا علاج لهذه الأسباب إلا بالتربية الجادة على معالم التزكية القلبية المطهرة، وذلك من خلال تحمل الأسر مسؤولياتهم لتنشئة الجيل على معرفة ما يجب تمثله من مكارم الأخلاق في الاعتقاد بإخلاص التوحيد، وفي العمل بأصل التسنن، وفي الاخلاق بقيمة العدل، ومع الموجودات بإنصافها والاعتراف بفضل الله فيها، وإعطائها حقها في وجودها، وما يقوم عليه هناء عيشها، وإقامة الشرع فيها بالتصرف في استغلالها وفق المصلحة التي جعلها الله تعالى من مقومات هذا الدين الحنيف.

ثم بتثقيف الجيل بمبدأ المسؤولية عن معرفة معايب النفس الخفية والتفرغ لتحقيق التزكية المقصودة من الإرسال، وتفصيلات الرسالة؛ لأن بإصلاح النفوس تنصلح الجوارح، ويستقيم السلوك، وتتأدب الشهوة، وتختفي الشبهة، ويُذْعَن للعقل في الهوى والمُنْية، كما أفاد ذلك قوله ﷺ: «**... ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**».[1] وصدق من قال من الحكماء: الإنسان عقل تخدمه الأعضاء.[2]

إن منهج التزكية النبوي الذي يسترقي به الإنسان، من طبائع البهيمية إلى رونق الحكمة، مؤسس على مداواة هذه المضغة من أرجاسها، وتطهيرها من معايبها، حتى تُربّى على الصبر عما كره منها، وتحمل مشقة ما أريد منها، في أفق أن تستصفى لها أعراض فطرتها الموحدة التي خلق الله الإنسان عليها لتذكر بها موجدها، وتعلم ما فعل بها منشئها، وتدرك حقه المستحق في الطاعة والعبادة، وتوقن باختصاصه بالإحياء والإماتة، والطاعة والعبادة. ثم على المعاملات التي تنتظم بها المعاشات، والتصرفات التي تنضبط بها العلاقات، والتدخلات التي تتكافأ فيها الفرص، وتتحقق بها قيمة العدل الذي يمنع أن يظلم معه أحد كائنا من كان.

---

(1) البخاري، في **كتاب الإيمان**، باب فضل من استبرأ لدينه وعرضه، برقم 52، ومسلم، في **كتاب المساقاة**، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، برقم 1599.

(2) **مقاصد الشريعة**، للطاهر ابن عاشور، 198/3، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1425هـ – 2004م.

• التزكية التزام بأداء الحقوق، وانتصار على النفس ومواضعها من الشهوات

إن عنوان التحقق بالتزكية القلبية هو أداء حقوق الأوقات كاملة مستوفاة، وذلك بإتقان فهم تنزيل رسومها، وإحسان إظهار صورها وإقامة أركانها، كلما دعا داعيها، ومحاسبة النفس على التقصير فيها، وإظهار طيب ثمارها، بترك المنكرات، وتجنب المظالم المستقبحات، والاستمتاع المشروع بالشهوات المباحات، لإقامة العبادة على أوجهها ومقاصدها، وبلوغ المقصود من فرضها وإيجابها، وتحصيل السعادة ببركاتها وأنوارها، في أفق أن يتحقق العبد بمجموعها بصدق التذلل لله تعالى المحرر من الآثام، والتعلق به المنقذ من مواقعة الحرام، والإنصاف في التواصل مع الأنام، لتحقيق الغاية الكبرى من خلق الإنسان، وبلوغ النهاية المثلى لنصبه سيدا على الأكوان، التي نص الله عليها في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ (الذاريات/56-58)؛ وأعلمهم أن هناك يوما آخر تنكشف فيه حقائق آثار أعمال الدنيا القلبية والبدنية، ويمتاز من وفى فيها بأداء حق التكليف المتعلق به ومن خان في توظيف تصرفاتها فيما ينبغي من العمل المرفوع والسعي الرافع إلى المنازل التي يتباهى الناس بها في مواقعهم التي انتهوا إليها بصالح أعمالهم، كما هو بين في قوله: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة/281). وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَٰنِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ

﴿ٱلۡأَوۡفَىٰٓ﴾ (النجم/39-41). حيث التعرض لمنازل التعظيم والثواب، والتنزل في استحقاق مراتب العقاب –عياذا بالله تعالى–.

• التزكية عطاء ومسؤولية ومحاسبة

إن الاستقرار النفسي، والعطاء النفعي، والتآلف الجمعي، خالص لمن عرف كيف تغلب فضائله رذائله، وكيف تفوق مكارمه مساوئه ؛ وكيف يسمو في قدره، ويقترب بنفعه؛ إذ هو عنوان الاستسعاد الحقيقي الذي لا يمكن بلوغه إلا برسوم التزكية الشرعية المثمرة، وعطاءاتها المسعدة، للتحقق بحسن التخلق المطهر من المناهي الباطنة، والمنزه عن الآثام الظاهرة، غاية مشروع التزكية المعظِّم لشأن المسؤولية، والحاث على المحاسبة اليومية،لتصحيح السلوكات، وضبط التصرفات، وتمتين العلاقات، في أفق إقامة شعب الإيمان الجامعة المؤمِّنة بعد الموت، والميسرة لإحسان الإجابة العملية في الدنيا عن أسئلة القبر المصيرية الجامعة لأصول الدين المجملة، الذي جاء فيه قول النبي ﷺ عند تفسير قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ (إبراهيم/27) قال: «**في القبر إذا قيل له** –**أي للمكلف**–: **مَنْ ربُّك، وما دينك، ومن نبيك**».[1] وكما يدل على ذلك أيضا ربط نجاة المكلفين بالإجابة العملية عن الأسئلة المصيرية المُبَيَّنَة في قول النبي ﷺ: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيمَ أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه**»[2].

(1) مسلم، في **كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها**، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار، برقم 1599، والترمذي، في **كتاب أبواب تفسير القرآن**، باب ومن سورة إبراهيم عليه السلام، برقم 3120.

(2) الترمذي، في **كتاب أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله** ﷺ، باب في القيامة، برقم 2417، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو يعلى الموصلي، في **المسند**، 428/13، عن أبي برزة الأسلمي.

21. التفاضل بالتقوى

من المسلم به عند العارفين بمقتضيات كليات الدين، والمتفق عليه بين المؤهلين للتوقيع عن رب العالمين، إيجاب احترام خصائص الإنسان، وتقدير استخلافه حسب الإمكان، باعتبار كونه أكرم المخلوقات، وتميزه عن سائر الموجودات، ولذلك نصت على تقديس حياته، وقررت حماية ماله وعرضه، وحرمة كل ممتلكاته، وإنصافه فيما بينه وبين غيره، وإعطاءه حقه في كسبه، وتمتيعه بحرية اختياره، ورفع مظالمه المقلقة، وطرد حاجاته المعوصة، وكشف كرباته التي تغشاه عند حلول المصيبات.

وقد جعل الدين هذا المبدأ المؤسس على تكريم الإنسان، وتقدير محله مميزا باعتبار أصل الإخاء الإنساني المشترك بين بني آدم جميعا الذي لا عنصرية فيه، ولا عصبية تقتضيه، ولا شعوبية تعتريه؛ الإخاء المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيراً وَنِسَآءً وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَالاَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء/1). وباعتبار عظمة حرمة روحه التي أبان الله تعالى عن قدرها وضرورة تبجيلها في قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ اَوْ فَسَادٍ فِى ٱلاَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ اَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعاً...﴾ (المائدة/34). وقوله في وجوب إنصاف المخالفين بالقيام بحق العدل فيهم في قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلاَّ تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ

هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة/9).

إن من علل تدين الناس، وفساد نظامهم في الحياة، الرفض لمبدأ التكريم، والرفع من شأن شعار التمايز بين الناس بحسب اللون أو الجنس أو العرق أو النسب أو الطبقة... الذي صار مدمرا للاجتماع الإنساني، ومؤذنا بانفراط العقد السياسي؛ وما قتل بعض الفئات في بعض البلدان بسبب لون بشرتها، إلا مثال حي على مستوى التدني الخلقي والإنساني الذي بلغته بعض الحضارات القائمة أساسا على فكرة التمييز العنصري؛ والتباين العرقي، مما يؤذن بخرابها، ويعلم بذهاب ريحها.

• التفاضل بين الناس لا يكون إلا على أساس التقوى

إن التقوى التي تصان بها أوجه التعبد هي التي يقوم عليها حق الاستخلاف المنضبط، وتثمر اجتناب ظاهر الإثم وباطنه المؤثر في تحقيق التزكية، والمشوش على قبول الأعمال، والحال دون كمالها. وقد أمر الله تعالى باتقائه بنوعيه لضمان التحقق بالتقوى التي جعلها الله تعالى مفتاح الوفاء بالتزاماته المندرجة في اسم الأمانة التي تحملها الإنسان عن طوع، وأشهده على تنفيذ بنودها فقال سبحانه: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ..﴾ (الشورى/33-34).

وهي التي تنفي عن الإنسان بلية الطغيان الناتج عن الاستغناء، الذي يحمل المبتلى به على احتقار أخيه واستصغار شأنه لنزول حسبه أو نسبه أو ضيق

ذات يده، وهو شأن جاهلي ينافي مكارم هذه الحنيفية ويحيي رسوم الحياة الجاهلية التي جاء التحذير منها في قوله ﷺ في معرض بيان اشتراك كل بني آدم في أصل الكرامة الإنسانية: «**إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ**[1] **الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب**»، قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات/13)[2].

فلا يجوز لمن وعى رسالته، وذكر وظيفته، أن يتعظم في نفسه أو يختال في مشيته ليصنف نفسه على حساب جهة مستغنية معينة، أو يحضر ذاته في مشروع فئة متكبرة محددة كائنة من كانت؛ لأنه ليس في الإسلام شخص هو أولى من شخص، ولا جماعة هي أولى من أخرى، ما داموا جميعا في دائرة الإسلام؛ لأن ذلك ينافي حقيقة الاقتداء بالنبي ﷺ، الذي أبطل عصبية الجاهلية، ووضع أهواءها تحت قدمه، لما جعل عنوان التفاضل بين الناس راجعا إلى مستوى التقوى الذي وصلوا إليه، ودرجة النفع التي تحققوا بها، ومما صح عنه في ذلك قوله: «**لينتهين أقوام عن فخرهم برجال، أو ليكونن أهون عند الله من عدتهم من الجُعْلان التي تدفع بأنفها النَّتن**»[3].

---

(1) العبية: الفخر والكبرياء.

(2) الترمذي، **كتاب أبواب تفسير القرآن**، باب ومن سورة الحجرات، برقم 3260، وأبو داود، في **كتاب الأدب**، باب في التفاخر بالأحساب، برقم 5116.

(3) أحمد، في **مسند أبي هريرة**، 361/2، وأبو داود، بمعناه في **كتاب الأدب**، باب في التفاخر بالأحساب.

ونزع إلى هذا المعنى الطاهر بن عاشور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات/13)؛ أي فإن تنافستم فتنافسوا في التقوى، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ (المطففين/26). والخبر في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ مستعمل كناية عن المساواة في أصل النوع الإنساني ليتوصل من ذلك إلى إرادة اكتساب **الفضائل** والمزايا التي ترفع بعض الناس على بعض... والمعنى المقصود من ذلك هو مضمون جملة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات/13)؛ فتلك الجملة تتنزل من جملة ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ (الحجرات/13) منزلة المقصد من المقدمة...، ولذلك فصلت لأنها بمنزلة البيان. وأما جملة ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ (الحجرات/13)، فهي معترضة بين الجملتين الأخريين. والمقصود من اعتراضها: إدماج تأديب آخر من واجب بث التعارف والتواصل بين القبائل والأمم، وأن ذلك مراد الله منهم...؛ لأنهم لما تساووا في أصل الخلقة من أب واحد وأم واحدة كان الشأن أن لا يفضل بعضهم بعضا إلا بالكمال النفساني، وهو الكمال الذي يرضاه الله لهم، والذي جعل التقوى وسيلته. ولذلك ناط التفاضل في الكرم بـ «عند الله»، إذ لا اعتداد بكرم لا يعبأ الله به[1].

• التقوى منع للعدوان وبذل للنفع

إن شرف الإنسان المتقي وحسبه الذي **يذهب** إليه ليرتقي، هو في تقواه لربه، وخشيته لجانبه، وحفظه لحقه، المتجلي في تحمله بعلمه وتزينه بحلمه،

(1) **التحرير والتنوير**، 262/26، الدار التونسية، تونس، 1984م.

وإخلاصه لربه، ووفائه لمكارم دينه، باقتصاده وزهده، وتواضعه ولطفه، وكفه عن المحارم، وتنزهه عن الأمور العظائم، وعفوه عمن ظلمه، وإعطائه لمن حرمه، وصلته من قطعه، واستعزازه بما كسبت تقواه من مسرات، وما حصلت خشيته من صالحات، وما حققه احتسابه من مبرات، وما يخبئه بها لغده من أثر صالح، وفعل طيب فالح، يؤدي به حق الله تعالى وحق أمانته، وحق جماعته، ويأتي به فرض قرابته وجماعته وذوي رحمه، ثم يقيم حق محيطه بالنفع الذي يطيقه ذرعه، والجود الذي يتحمله وسعه، ليكسب معية الله تعالى وخيراتها، وينال من أنوارها وبركاتها، عونا ومددا، وعزا وسؤددا، وما فوق ذلك مما يطمع الصالحون في استجلابه، ويرغب الذاكرون في شرف استحصاله، مثل: محبة الله تعالى ونيل فضل قربه، وكرامة ذكره وشكره، وفضل مغفرته وستره، ومنقبة نصرته وولايته، مما يجعل المتقي لا يلحظ معها ما قد يعتز به غيره مزكيا لنفسه محتقرا لغيره، مفتخرا بأصله، ومبتهجا بنسبه وحسبه، ومستغنيا بما جمع من خالص تراثه، ومتعظما بما حواه من أثاث ممتع، ومختالا بما اختص به من متاع مبهج، وقدر سري مفرح، لا يفخر به إلا الذين ركنوا إلى عادات الجاهلية، وتكاثروا ولو بدوس الكرامة الإنسانية، وتعدي الحقوق البينية، ممن نسوا احتياجات سعي الآخرة، واطمأنوا بلذات هذه العاجلة، وفرطوا في كسب ما يؤمنهم عند الله غدا.

22. الربط بين المعاملات والعبادات

• فصام نكد بين العبادات والمعاملات

جرت عادة العلماء على تقسيم أفعال وطاعات الناس إلى عبادات ومعاملات، وهو تقسيم يراد منه التفريق بين ما هو حق محض لرب العباد كالوضوء، والغسل، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، والعمرة، والذكر ونحو ذلك من العبادات، وبين «كُلّ أَمْرٍ لَمْ يَتَمَحَّضِ الْحَقُّ فِيهِ لِلّهِ»[1] فامتزج فيه حق الله وحقوق العباد وهي المعاملات.

إلا أن الكثير من الناس –لقلة زادهم المعرفي– فرَّقوا بينهما تفريقا غريبا أدى إلى التساهل في المعاملات بل إلى التفريط فيها، فترى الناس إذا تعلق الأمر بالعبادات يشمرون عن ساعد الجد، ويستفرغون الوسع في الطاعات، أما في جانب المعاملات فإنهم لا يقيمون لحقوق العباد وزنا، أو على الأقل يتساهلون إلى حد التفريط.

إن هذا الفصام النكد بين العبادات والمعاملات أدى إلى الغفلة عن جانب التعبد في المعاملات، وجعل الكثيرين يفرطون في القيام بواجباتهم أحسن القيام، ولهذا السبب لا ينقضي العجب من مصلين وصائمين وملتزمين بأداء الفرائض حين يرى المرء سوء معاملتهم لبعضهم البعض، وإذايتهم لجيرانهم، وخيانتهم لأماناتهم، وتضييعهم لما نيط بهم من مسؤوليات. وكأنهم لا يرونها في درجة العبادات في وجوب الإخلاص والإتقان والتفاني في القيام بها على أتم وجه وأكمل صفة.

---

(1) **حاشية الصاوي على الشرح الصغير** (9/ 390).

والمسلم الذي سلم أمره لسيده ومولاه معاملاته منضبطة بقيود الشرع، ديدنه الأخذ بالأسْمَح في مُعاملاتِ النَّاس. والإتقان في كل أعماله شعاره قول المصطفى ﷺ في الحديث الذي روته أمنا عَائِشَة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ**».

• معاملاتنا بين العدل والفضل (تحري العدل واجب وتحري الإحسان ندب وتطوع)

والمعاملات هي أكبر دليل على صدق العقيدة وإخلاص العبادة، وهي الثمرة الحقيقية للإيمان، فالدين المعاملة. لذا يحثنا ديننا الحنيف على الإتيان بها على أكمل وجه وأتمه. فمعاملاتنا يجب أن تدور بين العدل وهو أحط مستوى من التعامل في نظر الإسلام، وهو نقطة الانطلاق التي لا يقبل في شرعنا أقل منها، وبين الفضل وهي المكارمة في المعاملة ولا حدود لها.

يقول الإمام ابن حزم: «حد العدل أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه. وحد الجور أن تأخذه ولا تعطيه. وحد الكرم أن تعطي من نفسك الحق طائعاً، وتتجافى عن حقك لغيرك قادراً، وهو فضل أيضاً، وكل جود كرم وفضل وليس كل كرم وفضل جوداً. فالفضل أَعَمّ، والجود أَخَصّ، إذ الحلم فضل وليس جوداً، والفضل فرض زدت عليه نافلة.»[1]

ويعتبر حجة الإسلام الغزالي: «الإحسان فعل ما ينتفع به المعامل وهو غير واجب عليه، ولكنه تفضل منه فإن الواجب يدخل في باب العدل وترك الظلم»[2]

(1) **الأخلاق والسير** لابن حزم ص. 31.

(2) **إحياء علوم الدين** 75/2.

أما الراغب الأصفهاني فيقول «واعلم أن العبادة أعم من المكرمة، فإن كل مكرمة عبادة، وليس كل عبادة مكرمة، ومن الفرق بينهما أن للعبادات فرائض معلومة وحدودًا مرسومة، وتاركها يصير ظالماً متعديًا، والمكارم بخلافها، ولن يستكمل الإنسان مكارم الشرع ما لم يقم بوظائف العبادات، فتحري العبادات من باب العدل، وتحري المكارم من باب الفضل والنفل، ولا يقبل تنفل من أهمل الفرض، ولا تفضل من ترك العدل، بل لا يصح تعاطي الفضل إلا بعد العدل، فإن العدل فعل ما يحب، والتفضل الزيادة على ما يحب، وكيف يصح تصور الزيادة على شيء هو غير حاصل في ذاته؛ ولهذا قيل: لا يستطع الوصول من ضيع الأصول. فمن شغله الفرض عن الفضل فمعذور، ومن شغله الفضل عن الفرض فمغرور».[1]

• الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة

وقد صح في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»[2].

فالحديث تشبيه عجيب لشعب الإيمان بشجرة عظيمة الفروع والأغصان» وَذَلِكَ لِأَن الْإِيمَان فِي اللُّغَة التَّصْدِيق، وَفِي عرف الشَّرْع: تَصْدِيق الْقلب وَاللِّسَان، وَتَمَامه وكماله بالطاعات، فحينئذٍ الْإِخْبَار عَن الْإِيمَان بِأَنَّهُ بضع وَسِتُّونَ شُعْبَة، أَو بضع وَسَبْعُونَ، وَنَحْو ذَلِك يكون من بَاب إِطْلَاق الأَصْل

(1) **الذريعة الى مكارم الشريعة** ص. 85.

(2) متفق عليه أخرجه البخاري في «صحيحه» (11/1) برقم: (9) ومسلم في «صحيحه» (46/1) برقم: (35).

على الْفَرْع، وَذَلِكَ لِأَن الْإِيمَان هُوَ الأَصْل، والأعمال فروع مِنْهُ. وَإِطْلَاق الْإِيمَان على الْأَعْمَال مجَاز، لِأَنَّهَا تكون عَن الْإِيمَان».[1]

• باب في بيان كثرة طرق الخير

ومن كرم الله، ومن التوسعة على المؤمنين أن كثَّرَ الله سبحانه طرقَ تحصيلِ الحسنات ونوَّعَهَا ويَسَّرَها « ليدوم نشاط السالك وجده في المعاملات، فإذا ملَّ من عمل اشتغل بغيره فأنفق أوقاته في مرضاة مولاه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة، الآية 213) وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُۥ﴾ (سورة الزلزلة، الآية 8) ... وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً﴾.

وجه دلالة الآيات على كثرة أعمال البرّ أن في كل منها نكرة في سياق الشرط وهي كذلك للعموم. والأصح أن العموم في قوة قضايا كلية تعددت بتعدد أفرادها».[2]

• تدين مغلوط

فمن التدين المغلوط، ومن الفهم السقيم لدين الله الاعتقاد بأن العبادات هي الغاية من التشريع والأحكام، والاقتصار على أشكالها ورسومها دون الوقوف على آثارها في المجتمع وثمارها في دنيا الناس.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ d أَنَّ رَجُلًا قَالَ: «يَا رَسُولَ الله، إِنَّ فُلَانَةَ، ذَكَرَ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي بِلِسَانِهَا، قَالَ : هي فِي النَّارِ، قَالَ : يَا رَسُولَ الله، إِنَّ

(1) **عمدة القاري شرح صحيح البخاري** 1/ 127.

(2) **دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين** 2/ 347.

فُلَانَةَ، ذَكَرَ مِنْ قِلَّةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا، وَأَنَّهَا تَصَدَّقَتْ بِأَثْوَارِ أَقِطٍ، غَيْرَ أَنَّهَا لَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا، قَالَ : هِيَ فِي الْجَنَّةِ.»[1]

فديننا يحث على كف الأذى وحجب الشرور والبوائق والإزعاج عن الناس، ويدعو إلى بذل المعروف وإعانة الملهوف وإغاثته. عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**».[2]

فالناس في المجتمع كأنهم مسافرون في سفينة، وهم في سفرهم هذا محتاجون إلى حسن المعاملة وإلى مراعاة حسن الجوار حتى تصل بهم السفينة إلى بَرِّ الأمان وإلا غرق الجميع في الفتن وغيرها. قال حجة الإسلام الغزالي قدس الله سره: «الأصل الثامن في القيام بحقوق المسلمين وحسن الصحبة معهم: وهو ركن من أركان الدين؛ إذ الدين معناه السفر إلى الله تعالى، ومن أركان السفر حسن الصحبة في منازل السفر مع المسافرين، والخلق كلهم سَفْرٌ[3]، يسير بهم العمر سير السفينة براكبها».[4]

والمفروض في ركاب هذه السفينة أن يتناصحوا وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وإلا هلك الجميع، فعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : «**مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا**

(1) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (76/13) برقم: (5764) والحاكم في «مستدركه» (166/4) برقم: (7397)، (166/4) برقم: (7398) وأحمد في «مسنده» (2023/2) برقم: (9806) والبزار في «مسنده» (129/17) برقم: (9713).

(2) أخرجه البخاري في «صحيحه» (11/1) برقم: (10)، (102/8) برقم: (6484) ومسلم في «صحيحه» (47/1) برقم: (40).

(3) أي مسافرون.

(4) **الأربعين في أصول الدين** لحجة الإسلام الغزالي ص.163، ط دار المنهاج.

عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا».[1]

فخلاصة الأمر وحاصله، ويجمع ذلك كله حسن صحبة عموم الخلق، «وأقل درجات حسن الصحبة: كف الأذى عنهم؛ قال النبي ﷺ: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**».[2]

وفوق ذلك: أن تنفعهم وتحسن إليهم، قال النبي ﷺ :«**الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله**».[3]

وفوق ذلك: أن تحتمل الأذى منهم، وتحسن مع ذلك إليهم، وذلك درجة الصديقين».[4]

ومن فقه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب d قوله في سؤاله عن حال رجل: الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (ص. 83).

شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِشَهَادَةٍ، فَقَالَ لَهُ: «لَسْتُ أَعْرِفُكَ، وَلَا يَضُرُّكَ أَلَّا أَعْرِفَكَ، ائْتِ بِمَنْ يَعْرِفُكَ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ

(1) أخرجه البخاري في «صحيحه» (139/3) برقم: (2493)، (181/3) برقم: (2686) وابن حبان في «صحيحه» (532/1) برقم: (297)، (533/1) برقم: (298)، (537/1) برقم: (301) والترمذي في «جامعه» (44/4) برقم: (2173) وغيرهم كثير.

(2) أخرجه البخاري في «صحيحه» (11/1) برقم: (10)، (102/8) برقم: (6484) ومسلم في «صحيحه» (47/1) برقم: (40).

(3) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (65/6) برقم: (3315)، (106/6) برقم: (3370).

(4) **الأربعين في أصول الدين** ص. 166.

الْقَوْم: أنا أَعْرِفُهُ، قَالَ: فَبِأَيِّ شَيْءٍ تَعْرِفُهُ؟ قَالَ: بِالْعَدَالَةِ وَالْفَضْلِ، قَالَ: فَهُوَ جَارُكَ الْأَدْنَى الَّذِي تَعْرِفُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ وَمُدْخَلَهُ وَمُخْرَجَهُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمُعَامِلُكَ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ اللَّذَيْنِ بِهِمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الْوَرَعِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَرَفِيقُكَ فِي السَّفَرِ الَّذِي يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: لَسْتَ تَعْرِفُهُ، ثُمَّ قَالَ لِلرَّجُلِ: ائْتِ بِمَنْ يَعْرِفُكَ!».[1]

فالله شرع لنا دينا قيما «يصْلُحُ ويَقُومُ به أمْرُ الناسِ في الحياتين؛ لأنه يساير الطبيعة البشرية الفردية والاجتماعية مسايرة صحيحة فطرية بمقتضى ما خلقها الله عليه وأراده فيها من الكمال، فهو يشرع للدنيا كما يشرع للآخرة، ويضع لها مناهج الخير والنفع العام والمصلحة الصحيحة المنطبقة على سنن الكون ونظام الاجتماع الصحيح، مراعيا في ذلك الأحوال المادية والروحية، سداه الوحدة الخوية الإنسانية، ولحمته السعادة الدنيوية والأخروية، حيث يسمو بالنفس إلى الذروة العليا من الفضائل ومعاني الإنسانية، ويهدف أن يجعل البشر في منتهى الرقي والكمال، فالإنسان الذي تتم فيه معاني هذا الدين على وجهها الصحيح هو الإنسان الفاضل الكامل الجليل بالمعنى الصحيح لهذه الأوصاف».[2]

---

(1) أخرجه الخطيب البغدادي في **الكفاية في معرفة أصول الرواية**، باب الرد على من زعم أن العدالة هي إظهار الإسلام وعدم الفسق 238/1. وذكره بمعناه الحكيم الترمذي في **أدب النفس**، وبنحوه ابن قتيبة في **عيون الأخبار**، وضعَّف الأثر العقيلي في **الضعفاء**.

(2) **تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل** رشيد الخطيب الموصلي 399/3.

23. التعدد البشري والتنوع الثقافي من آيات الله

إن الفهم الصحيح للشأن الجديد على الصعيد الكوني يثمر أهمية كبرى، ويبرز للمسترشد منة عظمى، هي تساكن الأديان والأجناس والأفكار، الذي يتحقق به السلم العالمي، وينتظم به التحاور الإنساني، والتلاقح الثقافي، وما يقتضيه واجب الاعتراف بالآخر، ويتنزل به واجب التعارف بين الحضارات، الذي جعله الله أحد مظاهر ألوهيته البارزة، التي أشار إليها في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الروم/21). وفرضه لقيام التعارف فيما بينهم ليتبادلوا المنافع، ويتناقلوا التجارب، ويتفقهوا في طبيعة الخصوصيات المناسبة التي يمكن أن تسهم في تثبيت الحضارة وتنميتها، وتنويع روافدها ومواردها. وقد بين الله تعالى أهميته في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات/13).

ولعل من أهم المداخل المساعدة على تحقيق التساكن بين الناس ـ على اختلاف لغاتهم، ومعتقداتهم وأعرافهم وقوانينهم، الإقرار بضرورة التعايش، والاجتهاد في إبراز القيم الكونية، والتعريف بالمعالم الأخلاقية لهذه الشريعة السمحة المكملة لذلك، والاعتماد على الحوار البناء في تحقيق التواصل، والاعتراف بحقوق الإنسان في المتفق عليه بين الأديان التي تخدم قيم العدل والحرية والمساواة والمحبة والسلام... وتثقيف المتدينين في كل الديانات بضرورة احترام المكتسبات المدنية والسياسية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للشعوب، خصوصا التي تربط بعضها ببعض علاقات تشاركية

سياسية أو اقتصادية أو ثقافية، حتى لا يبقى المسؤولون عن التوجيه الديني معزولين عن هذا العالم الفسيح الذي تحتاج الجماعة فيه إلى خير ما عندها من القيم الخلقية، كما يحتاج غيرها إلى أحسن ما أنتجته الحضارة المعاصرة من الثقافات والمعارف والعلوم الخادمة لمناهج العلم، أو المنظمة لمسالك التقنيات، أو المسهلة لطرق العيش التي تخفف عن الإنسان هموم المعاش ومتاعبه في المجال التقني، والاتصالي، والاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي...

• وحدة أصل الخلق، واتحاد خطاب الله إلى الناس، ومضاء حكمه فيهم

إن فقه شعار الإنسانية المرفوع في العالم من صميم قيم الدين الإنسانية، التي توجب احترام خصائص الإنسان باعتبار كونه أكرم المخلوقات على الله تعالى، وتفرض تقديس حياة الناس، وحماية أعراضهم، وصيانة ممتلكاتهم، وإنصافهم فيما بينهم، وإعطاءهم حقوقهم، وتمتيعهم بحرياتهم، ورفع مظالمهم المقلقة، وطرد حاجاتهم المعوصة، وكشف كرباتهم التي تغشاهم عند حلول الكوارث، ونزول صعاب الأمور، والحيلولة بينهم وبين ما يفسد عليهم إنسانيتهم وسعادتهم.

وقد جعلته الشريعة مبدأ مميزا لها باعتبار الإخاء الإنساني المشترك بين بني آدم جميعا، الذي يدل عليه وصف القرآن بأنه هُدى للعالمين في قوله تعالى: ﴿قُل لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام/91)، ودعاء الله للناس جميعا بأداء حق اتقائه بحق خالقيته في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ

مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيراً وَنِسَآءً وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِے تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَالاَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء/1). وباعتبار عظمة حرمة نفخة روحه التي أبان الله تعالى عن قدرها وضرورة تقديسها في قوله سبحانه: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِےٓ إِسْرَآءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ اَوْ فَسَادٍ فِے ٱلاَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعاً وَمَنَ اَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعاً...﴾ (المائدة/34). وقوله في وجوب إنصاف المخالفين بالقيام بحق العدل فيهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلاَّ تَعْدِلُواْ اِعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة/9). وقوله في لزوم المدافعة لرفع الظلم: ﴿وَلَوْلاَ دِفَعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اَسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَنْ يَّنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج/38).

إن الله تعالى أراد تمكين الناس من الحرية المتخلقة في كل متعلقات الحياة، وجعلها من أبرز مقاصد الشِّرعة السهلة، وأجل المقومات الإنسانية؛ لأنها تخلص الإنسان من الاستعباد المادي كالاسترقاق، ومن الاستعباد المعنوي الذي يجعل الإنسان لا يستقل بفعله عن وعي بمآلاته، بسبب فتنة الشبهة أو بغلبة الشهوة، أو بالتنكر لنعمة التكريم الإلهي، الذي يتمظهر بالإثم والعصيان، وتعدي الحدود، وترويع الآمنين، والخروج عن ثوابت الأمة المكونة لخصوصيتها الجامعة.

• الحرية حق مكفول لجميع الناس

لقد أبانت هذه الشريعة عن أصل بقاء وصف الحرية بكل آفاقها صفة في حق غير المستجبين لتلازم وصف الإنسانية بنعمة الاستخلاف الذي لا يؤثر فيه تخيير الله للإنسان بين الشكر والكفر، وبين الطاعة والعصيان في مواضع كثيرة من كتابه، كقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة/256). وقوله سبحانه على لسان نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡۚ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ (هود/28). ليحيى الناس على وفق هذه الأصول المُكَرِّمة والمُحَرِّرة الموجبة للتعايش بين الشعوب وحضاراتها وما أنتجته ثقافاتها، التي عكر عليها الفهم المجتزأ للدين، والفقه الضيق لمكارم الرسالة.

ولقد قدم المغرب على مر التاريخ، نموذجا حضاريا مرموقا للتعايش والتساكن بين المسلمين وأهل الديانات الأخرى، لاسيما اليهود والنصارى، مما أسفر عنه ازدهار الحضارة المغربية – الأندلسية بالتعاون بين مختلف الأديان، فاليهود والنصارى الموجودون في المغرب لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات، فهم أعضاء في الأحزاب السياسية ويعملون في مختلف الوظائف الحكومية، ولهم جهود مشهودة في التطور ومختلف مجالات التنمية.[1]

(1) ينظر نص الرسالة السامية التي ألقاها، نيابة عن أمير المومنين محمد السادس، وزير الأوقاف، د. أحمد التوفيق، خلال افتتاح أعمال مؤتمر «**حقوق الأقليات الدينية في الديار الإسلامية: الإطار الشرعي الدعوة إلى المبادرة**» في مدينة مراكش 2016/1/25.

إن استحضار هذا النموذج الفريد في التعايش يؤسس لبناء عالم يكون أكثر إنسانية، وأوسع تواصلا، وأرحب تخلقا وأبسط عدلا، وأعظم محبة ورحمة، لا يُظلم فيه أحد لاختياره، ولا يقصى غيره لإبداء اجتبائه، ما لم يتعد الحدود، أو يتجاوز الثوابت، أو يشوش على الاختيارات التي وقع عليها إجماع الأمة، وحصل الاتفاق على أنها أساس لا غنى عنه لأمنها الروحي وسلمها الاجتماعي، مما يدرأ بلية الانشعاب، ويحمي من رزية الافتراق.

• من ثمرات التعايش على أصل الإخاء الإنساني

لقد أخذت الثقافة – سواء أكانت روحية أم مادية أم فكرية أم عاطفية – في عالمنا المعاصر أشكالا متنوعة عبر المكان والزمان، تُلحظ في تعدد التنوع الثقافي، مصدر التبادل والتجديد والإبداع، الذي ينبغي لنا نحن المسلمين تجديد الانفتاح عليه تفعيلا لقيم المحبة والرحمة والتعارف والتعاون الأصيلة في الدين؛ واحتراما لكرامة الآدميين، وإقرارا بأن كل ثقافة في حاجة إلى ثقافة أخرى، واتفاقا على أنه من ضرورات تآلف الجنس البشري الذي يتداخل في عطاءاته ويتكامل في إبداعاته، ويتعدد في فنونه وصناعاته، التي يلزم الاشتراك في الاستفادة منها أخذا وعطاء، تكميلا ونماء، لكونها نتاجا إنسانيا مستحقا للجميع، يفرض اعتماد المشترك منها إطارا أساسيا لتثبيت أحكام التعارف والتعاون، وسُلَّمًا للتناصر والتراحم، ومدرجا لتناقل التجارب، ومد جسور التواصل الذي يحمي من الانغلاق والنزاع والصراع، ويقي من التمييز والتهميش والتحقير، ويحول دون ادعاء التفرد المصغر لعطاء الغير، والمهوِّن لشأنه والمستضعف لأدائه، والمُكَرِّه في تراثه الذي قد يفضي إلى ما لا يحمد

من الخلاف والتباعد والكراهية والشقاق والعنف والتكفير، وما يشوش على التعايش المطلوب، ويفسد التعارف المنشود؛ وقديما قيل: «الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجد المؤمن ضالته فليجمعها إليه».

24. المساواة بين المرأة والرجل

إن المقصود من أداء مهمة التلقين، التي تبلغ بها أحكام الدين، ويبين بها تصريف الآيات في التنزيل، التعريف بالحقوق المتعلقة بالذمة، والتحديد للتكاليف المفترضة في الملة، التي بها يؤدى حق الرب الخالق، ثم واجب النفس وعامة الخلائق، وينضبط به الكسب والصلة مع المخالف والموافق، في أفق أن يظهر به التغيير المنشود الذي يرقّي مستوى تدين الفرد، ويعلي درجة تحضر الجماعة، وينظم عام أحوالها على القيام بالقسط مرادِ الله من إنزال الكتب وبعث النبيئين.

ومن أجل الحقوق التي يجب صونها وأظهر المفترضات التي يحق حفظها، رعي المقاصد الكلية، وصون الأحكام الجزئية، التي تدور عليها النصوص الشرعية، وتتأسس عليها القواعد الفقهية، المتمثلة في مقصد حفظ الدين، وصون الكرامة الإنسانية؛ لأن بهما يقام حق الله تعالى بتصحيح الاعتقادات، وأداء حق الأوقات بالمفترضات؛ وتنظيم المعاملات وضبط العلاقات.

ولا شك في أن أزكى ثمار حفظ هذه المقاصد، وما يخدمها من محكم القواعد، ضبط العلاقة بين الرجل والمرأة على أساس الأخوة الدينية التي حلى الله تعالى بها المؤمنين والمؤمنات في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُومِنُونَ إِخْوَةٌ﴾. (الحجرات/10)، وعززها النبي ﷺ بقوله: «**إن النساء شقائق الرجال**»[1]. الدال على أن المرأة شطر دنيا الرجل ودينه؛ لأنها تشاطره في

(1) الترمذي، في **أبواب الطهارة**، باب فيمن يستيقظ فيرى بللا ولا يذكر احتلاما، برقم 113، وأبو داود، **كتاب الطهارة**، باب في الرجل يجد البلة في منامه، برقم 236.

المعاش، وتجمع همه على العبادة، وتصون عرضه عما لا يجوز[1]، والناص أيضا على أن الأصل هو المساواة بين النوعين إلا ما استثناه الدليل، وما اقتضته العوارض التي تفرض التمييز الوظيفي، وما تستلزمه بنية المرأة وقدرتها ونوع مسؤوليتها، حتى لا تكلف ما لا تطيق، وحتى لا يذهب عنها ما هو معدود في خصوصياتها، سواء أكانت فطرية، أم شرعية، أم اجتماعية أم سياسية أم حقوقية، مما شاء الله تعالى أن يحصل في بعض جوانبها التمييز الذي يقوم به القسط، ينتظم به التسخير، ويحصل بسببه التعمير الذي تطيب به الحياة، ويستمر به تعاقب الخلائف.

ويتعزز هذا المعنى بدخول الذكر والأنثى في خطاب الله المبين عن مراداته، وبيانه المسفر عن أداء واجبات توحيده وصور عباداته، المؤسسة على العلم والعمل والهجرة والمسارعة والسبق إلى الفضل ونفع الخلق والشهادة على الناس، كما يفهم ذلك من الخطاب الإلهي المستهل بعبارة: «يا أيها الناس»، الذي يندرج فيه كل المكلفين، أو بصيغة: «يا أيها الذين آمنوا»، المشعرة بدخول كل من آمن من الجنسين، فيمن استجاب لله ولرسوله ﷺ.

يقول الطاهر بن عاشور: «إن المسلمين مستوون في الانتساب إلى الجامعة الإسلامية؛ لأن معنى الأخوة يشمل التساوي على الإجمال بجعل المسلمين سواء في الحقوق المخولة في الشريعة، بدون تفاوت فيما لا أثر للتفاوت فيه بين المسلمين من حيث إنهم مسلمون. فإذا علمنا أن المسلمين سواء بأصل الخلقة واتحاد الدين تحققنا أنهم أحقاء بالتساوي في تعلق خطاب الشريعة بهم، لا يؤثر على ذلك التساوي مؤثر من قوة أو ضعف، فلا تكون عزة العزيز زائدة له من آثار التشريع، ولا ضعف الذليل حائلا بينه وبين مساواته غيره في

(1) ينظر كتاب **الأربعين الطبية**، للحافظ أبي محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادي، ص 69.

آثار التشريع. وبناء على الأصل الأصيل، وهو أن الإسلام دين الفطرة، فكل ما شهدت الفطرة بالتساوي فيه بين المسلمين، يفرض فيه التساوي بينهم؛ وكل ما شهدت الفطرة بتفاوت البشرية فيه فالتشريع بمعزل عن فرض أحكام متساوية فيه، ويكون ذلك موكولا إلى النظم المدنية التي تتعلق بها سياسة الإسلام لا تشريعه»[1].

• عدم المساواة ظلم وتحريف وغلو

إن إعمال هذا المقصد الكبير في المساواة، لا يتم في واقع حياتنا إلا برفض مسلك الذين أساؤوا النظر إلى طبيعة النساء، وتجاهلوا أدوارهن التاريخية في شتى مجالات العمران، وتنكبوا ما ورد فيهن عن سيد الأنبياء ﷺ حبا[2]، ولطفا[3]، ووصاة[4]؛ فتداعوا من حيث لا يشعرون –في هذه الحيثية– إلى إعمال إرث الجاهلية الفظ الجافي الغليظ، المتواصي باحتقار المرأة في أحوالها، واستصغارها في مواقفها، والداعي إلى جحد قدر كرامتها، وتأخيرها عن حقها، واستضعاف رأيها، ونزع حريتها، وهضم حقوقها، ورفض تعليمها،

---

(1) ينظر **مقاصد الشريعة**، للطاهر بن عاشور، 280/3، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1425هـ – 2004م.

(2) عن أنس بن مالك، أن النبي ﷺ قال: «**حبب إلي النساء، والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة**»، **مسند أحمد**، 305/19، والنسائي، في **كتاب عشرة النساء**، باب حب النساء، برقم 3940.

(3) عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**.. ». أخرجه الترمذي، في **أبواب المناقب**، باب في فضل أزواج النبي ﷺ، برقم 3895، وابن ماجه، في **كتاب النكاح**، باب حسن معاشرة النساء، برقم 1977.

(4) عن عمرو بن الأحوص، أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه، وذكر، ووعظ، فذكر في الحديث قصة، فقال: «**ألا واستوصوا بالنساء خيرا...**». أخرجه الترمذي، في **أبواب الرضاع**، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، برقم 1163، وابن ماجه، في **كتاب النكاح**، باب حق المرأة على الزوج، برقم 1851.

واعتقاد تخلفها، والتسليم بعجزها وعدم أهليتها في مباشرة الأمور الموكلة إليها إرثا، وعملا، ومسؤولية، ووظيفة اجتماعية، أو اقتصادية، أو ثقافية أو سياسية.

إن من أظهر المكارم التي تؤسس للعلاقة التكاملية القائمة على العدل بين الجنسين، ثبوت التماثل بين الرجل والمرأة في معظم الأشياء أو في المهم منها، أو في غرض مقصود ترتبط به الوظيفة الوجودية، والمهمة العمرانية، كما يظهر ذلك في تقصد الشريعة لروح النوعين الذكر والأنثى –التي لا تذكر لذاتها ولا تؤنث– في إدخالهما نفسيهما في نور مقاصد البعثة النبوية التي أثبت التاريخ تميز المرأة مثل أخيها الرجل في مجالات التنمية الكبرى تلقينا وتدريسا، وتزكية وتربية وتضحية وتنمية ؛ إعمالا لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوۤءٍ تَوَدُّ لَوَ اَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥۤ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران/30). ويظهر هذا التماثل الذي يشهد له التاريخ والواقع في أدوات الإدراك من العقل والقلب والسمع والبصر، التي أمر الله بإعمالها لمعرفة المبدأ، ومعرفة المعاد حيث ينتهي السير وما وقع فيه من كسب إلى الله تعالى للمجازاة التي ذكر الله بها في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَـٰقِيهِ﴾. (الانشقاق/6).

• من ثمرات إقامة البلاغ على فقه التساوي بين الجنسين

إن من أهم الغايات التي تبدو واضحة منذ التنزل الأول للقرآن الكريم، التركيز على العدالة الإنسانية والاجتماعية، وعلى المساواة الأساسية بين الذكر

والأنثى –على جهة الخصوص– ... وحتى بالنسبة إلى أركان الإسلام الخمسة التي ينظر إليها على أنها دينية المنحى بامتياز، تنطبع بطابع العدالة الاجتماعية، وترمي إلى تكوين جماعة متساوية كغاية كبرى له... وإن المحاججة القائلة بأن النساء، ومهما كان حجم تطورهن الذهني، يجب أن تكون لهن قيمة تقل عن قيمة الرجال، إنما هي في الحقيقة افتراء ظالم على معاني القرآن ونصوصه المتعلقة بالتطور الاجتماعي...[1].

إن أجلَّ ثمار فقه التساوي بين الجنسين في الحقوق والواجبات، ترسيخ التقدير المتبادل بين الذكر والأنثى على أساس التكريم المشترك، والحب المتبادل، والتكليف المفترض، والتعاون المثمر، والتعمير المنتج، الذي يحصل به الاستخلاف الناجح، والعطاء الفالح، مما يفضي إلى سعادة الدنيا ونعيم الحياة الأخرى، محل سكينة الأرواح الزكية، ومعدن النفوس الأبية، التي نَوَّرتها بينات الوحي بمراتبها، وطيبتها للخلود بمعالم مراشدها، قياما لله بحقوقه، واستباقا لمرضاته، وخوفا من عذابه، وحذرا من سوء المصير المشار إليه في قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (الزمر/9)؛ الذي يعم الجنسين ويشمل حياة النوعين، لتعلق هذا الجزاء باستحضار مقام الله تعالى، وخوف جنابه، وإتيان محابه بالرُّوحِ في سموها، والنفس في علوها، وما تسمو إليه بصالحاتها التي تُسعد في الحياة، وتُؤمن بعد الممات.

---

(1) **الإسلام وضرورة التحديث**، لفضل الرحمن، ص 34، ترجمة إبراهيم العريس، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى 1993م.

ثالثا:

مقتضيات العمل الصالح

ـأ ـ التقوى

25. الأمن شرط في إقامة الدين وسلامة التدين

إن تقوى الله هي السبيل السليم الموصل إلى الله تعالى، فإذا سلكها الإنسان حصَّل المعية الإلهية ونال من خيراتها، والأصل في هذا كله هو غرس الإيمان في القلوب، وتزكية النفوس بإعمال وازع القرآن والتوجيه والإرشاد والموعظة الحسنة، لأن كثيراً من الناس، وإن كانوا يؤمنون بالله ورسوله في الجملة، تغلبهم نفوسهم الأمارة بالسوء، ويغويهم الشيطان، فيَسعَون في الأرض فسادا بنشر الفتنة والاعتداء على الأعراض وانتهاك الحرمات، ونهب أموال الناس بالسرقة أو قطع السبيل... فينعدم الأمن الذي هو شرط الدين والتدين، إذا افتقده الفرد شقي وابتعد عن الحياة الطيبة، فقد امتن الله تعالى على قوم إذ أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؛ فالأمن هو الضرورة الأولى للحياة الطيبة.

• الأمن شرط الدين والتدين

تأتي شرعية الأمن في الإسلام من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ (البقرة/206). ومن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ (الأنعام/82)، ومن

قوله ﷺ: «**والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه**»[1]، فدعوة الحق تعالى الناس جميعاً للدخول في السلام والأمن، وذم فعل المسلم الذي لا يأمن جاره أذاه وبوائقه في الحديث الشريف، يؤكدان مكانة الأمن في الإسلام، ويقرران مشروعيته ومنزلته في الشريعة الإسلامية، وما ذلك إلا لحرص الإسلام على خير البشرية والعيش في نعمة الأمن والطمأنينة.

ولقد أقام الإسلام قواعد الأمن والاستقرار على:

- العدل والإحسان وحسن الجوار، والتعاون على البر والتقوى، وصلة الأرحام، والنهي عن الفحشاء والمنكر والظلم والبغي بغير الحق، وإقامة الحدود التي تصون كيان المجتمع، وتحميه من التفكك والتشرد والضياع، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل/90).
- الدعوة إلى الحوار ونشر الحريات والأخذ بالشورى، فقال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ (النحل/125).
- الدعوة إلى إقامة عدالة اجتماعية تقلص التفاوت الاجتماعي، وتقاوم عبودية الإنسان لأخيه الإنسان، وتكافح الجوع والفقر وتنصر

(1) أحمد، في **مسند أبي هريرة**، 381/12، والبخاري، في **كتاب الأدب**، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، برقم 6016.

المظلوم، وتنبذ كل أسباب العداء والفرقة من حسد وبغض وسخرية وتكبر، وتراعي حقوق الإنسان، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الحجرات/11).

• الأمن وحماية الحقوق

إن الأمن يتوقف على حماية الحقوق، والحد من انتشار الفوضى، لذلك كانت المسؤولية الأولى للدولة حماية الأفراد والجماعات بإقامة النظام وفرض سيادة القانون.

كما أن أهم مقومات تَحَقُّق الأمن الاجتماعي هو التوافق والإيمان بالثوابت الوطنية التي توحد النسيج الاجتماعي والثقافي، وتنمي الروح الوطنية التي تتعزز بتبادل الحقوق وتحقيق العدل والمساواة وتكافؤ الفرص.

وقد نهى الله سبحانه عن التعدي على الناس في أعراضهم وأموالهم وأبدانهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ (البقرة/188). كما نهى النبي ﷺ عن الإساءة إلى الناس بالأقوال والأفعال: «**المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده...**»[1].

فإذا تحقق الإيمان توافرت أسباب الأمن، وقد وضع الله سبحانه زواجر وروادع تكف عدوان المعتدين والعابثين الذين منهم من يدخلون في

(1) البخاري، في **كتاب الإيمان**، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، برقم 10، ومسلم، في **كتاب الإيمان**، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل، برقم 40.

الدين خداعا ثم يخرجون منه للتنفير منه، مثل الذين أنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ اَهْلِ الْكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِالذِىٓ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (آل عمران/72). ومنهم الذين يبثون الأفكار الهدامة وينشرون التيارات الفتانة من أجل نشر الفرقة وزعزعة الاستقرار، الذين ورد فيهم قول سبحانه: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَـٰفِقُونَ وَالذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلاَّ قَلِيلًا﴾ (الأحزاب/60).

كما أولى قضية حقوق الآخرين رعاية قصوى، وسن الأحكام لتقريرها وحمايتها، فقد جعل الله حقوق الأفراد واجبات لدى الآخرين، وشر الناس من أخذ حقوق غيره غصبا، يقول رسول الله ﷺ: «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة، فقال رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟ فقال: وإن كان قضيباً من أَراك**»[1].

فلابد من رعاية حقوق الآخرين مقابل التمتع بالحقوق الشخصية؛ لأن العيش في أي مجتمع ينسج مجموعة من العلاقات تربط أفراده بعضهم ببعض، على أساس منظومة من الحقوق المتبادلة التي يجب الوفاء بها وإقامة الميزان بين ما نأخذ وما نعطي. أخرج البخاري عن سلمان رضي الله عنه: «**إن لربك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه**».

• الأمن يحد من الخوف ومصادره

إن كل عمل يؤدي إلى الظلم وإتلاف المتاع والمنشآت والمؤسسات،

(1) الموطأ، في **كتاب الأقضية**، باب ما جاء في الحنث على منبر النبي ﷺ، برقم 11، ومسلم، في **كتاب الإيمان**، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، برقم 137.

والتعدي على أموال الناس وكسوبهم حرام شرعاً، وإن الذي يأتي هذه الأعمال ليروع أمن الناس ويعكر صفو حياتهم بعيد كل البعد عن شرع الإسلام وآدابه، وجاهل بمنهجه وأخلاقه، و لم يدرك قول رسول الله ﷺ: «**من ظلم من الأرض شيئاً طوقه الله من سبع أرضين**»[1]، والفساد في الأرض من أكبر أنواع الظلم، لأن ما ينتج عنه من أضرار مادية ومعنوية للفرد وللأمة يؤدي إلى إشاعة الخوف وزعزعة الأمن وفقدان الاستقرار ووقوع الخسائر الفادحة في الأموال والأنفس، وهذا كله يقع في دائرة الخوف والإفساد والإجرام، التي شملها وعيد الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (المائدة/33-34).

• من ثمرات الأمن والاستقرار

إن الأمن شجرة، أصلها ثابت في النفس المؤمنة، وفرعها ممتد في كل مكان، يؤدي إلى:

– زرع الطمأنينة والرضا، فلا ترغب في إذاية الآخرين والاعتداء عليهم، ولا تستجيب لتعرض الآخرين لها. قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰماً﴾ (الفرقان/63)؛

(1) البخاري، **كتاب المظالم**، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض، رقم 2320.

- حقن الدماء بتحريم القتل وكل ما يؤدي إليه من قول أو فعل، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿وَلاَ يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ (الفرقان/68)؛
- توفير الأمن المعاشي، فلا إسراف يبدد الثروة، ولا إقتار يعنت المستهلك، يقول سبحانه: ﴿وَالذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يُقْتِرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ (الفرقان/67)؛
- أمن الخطاب بتحريم الكذب، ومنع ترويجه، وإفزاع الخلق به، وابتزازهم وقول الزور... قال الله تعالى: ﴿وَالذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَاماً﴾ (الفرقان/72).

26. العدل أهم قيمة تؤهل للحياة الطيبة

لقد أقام الإسلام قواعد الأمن والاستقرار على العدل والإحسان وحسن الجوار، والابتعاد عن الظلم بشتى أنواعه ومظاهره، فالعدل أهم قيمة تؤهل للحياة الطيبة، بالنسبة للفرد والمجتمع، وتُبعد عن الشره وحب التسلط والاستقواء، فظلم الإنسان لنفسه وغيره نابع من ضعف في الإيمان والتقوى، ومؤدٍّ إلى الفراق والشقاق وانعدام الأمن والاستقرار. يقول الله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ (الحديد/25) أي أرسلناهم مؤيّدين بالحجج اللائحة والبراهين الواضحة، ويسّرنا السبيل على من آثر اتّباع الهدى. «وَالْمِيزَان» هو العدل، وهو الحقّ الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة. ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أي بالعدل في معاملاتهم، فلا يظلم أحد أحدا.

• العدل شرط التدين السليم والحياة الآمنة

الدين كله قائم على مبدأ العدل والقسط والإنصاف، وإحقاق الحق، وهو وضع كل شيء في موضعه دون زيادة ولا نقص ولا إفراط ولا تفريط. قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ (الرحمن/7-9). وموازين القسط هي المعيار الذي يعرف به الحق والعدل وتعرف به حقائق الأشياء وقيمها، ويوضع كل شيء موضعه؛ فتقوم حياة الناس بالقسط في كل جانب من جوانبها.

فما من أحد في الدنيا الآن إلا وهو يعرف العدل والظلم، فالعدل الذي أمر الله به في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾، وفي قوله: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾، وهو إعطاء كل ذي حق حقه، ووضع كل شيء موضعه على حسب ما اقتضته الشريعة المطهرة، والعدل بهذا المعنى أساس الفضائل التي جعلها الله وسيلة لبقاء النوع الإنساني في هذه الحياة إلى الأجل الذي أراده الله وقدره، فالعدل أساس: بقاء النوع الإنساني، واستمرار الدول، والحياة الطيبة، والاطمئنان والسكينة...، وليس في الدنيا أحد إلا وهو مطالب بالعدل، لعموم قوله ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيتها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته**»[1]، فكل فرد من الأفراد مسؤول عن تحقيق العدل في رعيته ومن هم تحت ولايته.

• ظلم الإنسان لنفسه ولغيره تفويت للحياة الطيبة

يؤكد هذا المعنى ما ورد عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ كانَ إذَا خَرجَ مِنْ بيْتِهِ قالَ: «**بسم اللّٰهِ، توكّلْتُ عَلَى اللّٰهِ، اللّٰهُمّ إنّي أعوذُ بِكَ أنْ أَضِلّ أو أُضَلّ، أَوْ أَزِلّ أوْ أُزلّ، أوْ أظلِمَ أوْ أُظلَم، أوْ أَجْهَلَ أو يُجهَلَ عَلَيّ**»[2]، وهنا توجيه لاستحضار هذه

(1) البخاري، في **كتاب الجمعة**، باب الجمعة في القرى والمدن، برقم 893، ومسلم، في **كتاب الإمارة**، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، برقم 1829.

(2) أحمد، في **مسند أم سلمة**، 230/44، وأبو داود، في **كتاب الأدب**، باب ما يقول إذا خرج من بيته، برقم 5094.

المعاني عند إرادة مخالطة الناس بالخروج؛ مما يؤكد أن قضية الظلم من النوازع الكامنة في نفوس الأفراد تنساق إليه بدافع الغضب، ولذا تعاملت معه الشريعة على أنه قضية ديانة وتقوى لا قضية قضاء وحكم؛ فهو يحتاج إلى تهذيب النفس بالتقوى المقوية لوازع الإيمان الذي يحمل الجوارح على أن تنزجر خوفا من العاقبة. ولا تنجلي قيمة العدل ومكانته إلا ببيان الظلم ومظاهره التي تتجلى في:

– **ظلم الإنسان لنفسه**: فالإنسان قد لا يتورَّع عن أن يظلم نفسه ويسيء إليها ويشوِّه خلقها، كالّذي يعرض نفسه للهلاك أو يقتلها أو يؤدي بها إلى ما يهدِّد كرامتها، أو يضيِّع إمكاناته وطاقاته، أو يضيِّع عليها فرصة الثّواب الأخروي بإسرافه على نفسه، وعدم القيام بمسؤوليّاته تجاه ربّه وتجاه عائلته وتجاه الناس...، وهذا هو المقصود بقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ (فاطر/32)، وقوله سبحانه على لسان نبيه موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ (القصص/16).

– **ظلم الغير**: وقد وردت في ذمه وتحريمه آيات كثيرة منها قوله عز وجل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ (الكهف/59)، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الزخرف/76)، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (آل عمران/57). قال الذهبي: «الظلم [يكون] بأكل أموال الناس وأخذها ظلمًا، وظلم الناس بالضرب والشتم والتعدي والاستطالة على الضعفاء»[1]، ومنه أيضا أخذ مال اليتيم، والمماطلة بحق الإنسان مع القدرة على الوفاء، وظلم

(1) **الكبائر**، للذهبي، ص 104، دار الندوة الجديدة، بيروت.

المرأة حقها من صداق ونفقة وكسوة، وظلم الأجير بعدم إعطائه الأجر. ومن الظلم البيِّن الجور في القسمة أو تقويم الأشياء، وقد عدها ابن حجر الهيثمي ضمن الكبائر.

وقيام الناس بالقسط غاية مشتركة بين جميع الأديان، لذا قرر الإسلام في بداياته الأولى إقامة القسط بين كل الناس، وإن اختلفت أديانهم؛ فبرأ يهوديا مظلوما، وأدان مسلما متهما، عملا بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة/8). قال الإمام ابن جرير في تفسير هذه الآية: «يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله، وبرسوله محمد ﷺ ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل، في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم»[1].

• من مقاصد العدل والقسط بين الناس

إن العدل الذي أمرت به هذه الأمة، حق عام للناس جميعهم، لا يحجبه عن مستحقه شنآن ولا عداوة، ولا يحول دونه اختلاف لون ولا جنس، بل ولا دين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فالعدل حق للجميع، وليس عدلًا بين المسلمين

(1) **جامع البيان**، 95/10، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1420هـ – 2000م.

فحسب؛ وإنما هو حق لكل إنسان بوصفه إنسانا، فهذه الصفة «صفة الناس» هي التي يترتب عليها حق العدل في الإسلام، وهي التي يلتقي فيها البشر جميعًا، وإن اختلفت أديانهم وألوانهم وأعراقهم، والأمة المسلمة مأمورة بأن تقوم بالحق والقسط والشهادة لله وحده، وليس لأحد سواه، فهو الحق الذي تتأسس عليه جميع الحقوق.

والعدل قسمان عدل المرء مع نفسه وعدله مع غيره، سواء كان فردا أو جماعة، فأما عدله مع نفسه فهو أن يسلك سبيل الاعتدال في العقيدة والعمل فلا يتمرد على الله ورسوله، ولا يلقي بنفسه في تيار الشهوات التي تهلكه من حيث لا يدري، ولا يطيع غيه وهواه، ويعمل على تزكية نفسه من الشرك، والاستجابة الطوعية لتكاليف ربه وأحكامه. وأما عدله مع غيره، سواء كان الغير فردا أو جماعة، فهو أن يعطيه حقه ولا يعتدي عليه في شيء، ويعرف واجباته تجاه الغير فيقوم بها، ويعرف حق الله وشرعه فلا يتجاوزهما، مع الالتزام بتطبيق القوانين التنظيمية التي تنظم أعمال وتصرفات ونشاط الأفراد والجماعات في المجتمع.

والعدل يحصل من تقوى الأفراد وينشئ في نفوسهم هيأة اجتماعية لا يُتصور معها رواج الظلم في علاقاتهم ومعاملاتهم؛ بحيث تكون العدالة لحمة الجماعة وسداها حتى فيما تدعو نوازع النفس المتأثرة بِمَيْلٍ أو نُفُور إلى إفساده بالبغي؛ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة/9)،

وهذه الهيأة الاجتماعية المؤسسة على العدل هي التي يُعَوَّلُ عليها في كَبْحِ ظُلْمِ الأفراد المفسدين لمؤسسات الجماعة كالأسرة، احتكاما إلى عقلائها واعتمادا على وازع الحياء منهم بما يخفف من كلفة الحاجة إلى التحاكم إلى حكم القضاء؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَآ إِنْ يُّرِيدَآ إِصْلَٰحاً يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ (النساء/35).

ويترتب كذلك على إقامة العدل مع النفس والغير أمور، أقلها راحة القلب واطمئنان النفس وهناء العيش، لأنه بالعدل تؤمن شرور الناس وأحقادهم، فلا يخشى أحد على نفسه وماله وأهله، فالعدل يبعث على الطمأنينة والراحة، ونشاط الأعضاء في أداء الواجبات واجتناب المنهيات.

27. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إنّ كل العبادات في الإسلام –سواء كانت فردية أو جماعية– إنّما هي مجرد وسائل للتقوى، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة/21)، فالمسلم يستحضر رقابة الله عليه، فيجتهد في اتباع هديه والتزام شرعه، متقيا كل ما يصرفه عن ذلك أو يفسده عليه، وهو بذلك يصون نفسه ويحميها من كل ما يمكن أن يشوش عليها سواء في عقيدته أو عباداته أو معاملاته.

• التقوى أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إن تقوى الله مفتاح الحياة الطيبة التي من أهم أسسها الأمن الذي أقام الإسلام قواعده على العدل ونبذ الظلم، وبما أن كثيراً من الناس، وإن كانوا يؤمنون بالله ورسوله، تغلبهم نفوسهم الأمارة بالسوء، ويغويهم الشيطان، فيبتعدون عن التدين السليم في عباداتهم ومعاملاتهم سهوا أو جهلا، فيظلمون أنفسهم ويَسعَون في الأرض فسادا بنشر الفتنة والاعتداء على الأعراض وانتهاك الحرمات، مما يجعلهم في حاجة إلى التعليم والتذكير والتزكية.

لذا فإنَّ الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المُنكر، أي: أمْرَ الناس ونُصحَهم بفعل ما أوجب الله عليهم، والابتعاد عن ما نهى عنه، لِمن أهمِّ المُهمات، وأفضل القُربات، وأكبر المُنجيات مِن العذاب والعقوبات، بل هو واجب عظيم، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (آل عمران/110)، فقد دلت هذه

الآية على خيرية هذه الأمة التي لا تنقطع ما دامت أسبابها قائمة؛ من الإيمان والعمل الصالح المعبر عن شِقّيه –بِرّاً وتقوى– بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ مما يعطي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دلالات مختلفة تؤول إلى معنى الحرص على تحقيق كمال التدين إيمانا وعملا صالحا في خاصة النفس، وتواصيا لتحقيقه في الغير.

• الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مهمات الإمام (الدولة الحديثة بأجهزتها)

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة الرسل وأتباعهم، وقد وصف الله به رسوله ﷺ في كتابه، وجعلها أبرز صفاته، بل أولها؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ (الأعراف/157). ووصف به الصالحين من أهل الكتاب؛ فقال جل شأنه: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (آل عمران/113-114).

كما وصف به عباده المؤمنين في قوله عز وجل: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ (التوبة/71).ونعت المنافقين بنقيض ذلك فقال تعالى: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ

وَالْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ (التوبة/67).

وقد استنبط الحسن البصري من قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران/21)، أن الآية دليل على أن منزلة الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر تلي منزلة النبيئين، فلذلك ذكرهم عقبهم. حيث عده بعض العلماء سادس أركان الإسلام.

ولقد حدد الرسول ﷺ هذا الأمر وقسمه إلى أقسام ثلاث فقال: «**مَن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه؛ فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[1]، فقد حمل أهل العلم مراتب الإنكار على اختلاف مراتب الجهات المكلفة به؛ فللإمامة العظمى التغيير باليد، وللعلماء التغيير باللسان، وللأفراد التغيير بالقلب.

فالمرتبة الأولى: تغيير المنكر باليد؛ وهذه لأولي الأمر؛ وقد شرع الله الحدود لبيان إزالة المنكر باليد، وحدد الحقوق والواجبات. ومنها أيضا قبول القوانين المنظمة لمرافق الحياة والمؤسسات المشرفة عليها بما يُحَصِّلُ منافعها باعتبارها معروفا، والحذر من مخالفتها المؤدي إلى استفحال آثارها باعتبارها منكرا من حيث ارتفاع كلفتها على مستوى الضروريات التي اعتنت بها الشريعة؛ من مثل حياة الأنفس، وأموال الأمة، وصحتها العقلية والبدنية، وطمأنينتها،

(1) مسلم، في **كتاب الإيمان**، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، برقم 49، وأبو داود، في **أبواب الجمعة**، باب خطبة يوم العيد، برقم 1140.

احتراما ينبغي أن تحمل عليه التقوى، لا أن يكون الحامل مجرد الخوف من العقاب أو التعرض للجزاءات عند مقارفتها.

المرتبة الثانية: تغيير المنكر باللسان، وهذه للعلماء والمبلغين ومَنْ تحقَّق لديه أمر المنكر، ولا يُعْذَر بتركه أحدٌ قَدَرَ عليه، وتكون بالموعظة الحسنة وبالحكمة وبالنصيحة. من أجل:

- أن يكون الناس على بينة مما هو معروف وما هو منكر؛
- أن يتبين للناس أن كل ما يدخل في القانون أمرا ونهيا ينسحب عليه ذلك الوصف؛
- أن تكون الفتوى في كل ما هو مشكل في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر راجعة إلى الإمامة العظمى؛
- أن يعتبر أن المسؤولية في التقصير في الأمر بالمعروف أو الإقبال على المنكر ترجع إلى الأمة كتنظيم أو إلى العلماء كمبلغين ومذكرين ومربين، إذا تعلق الأمر بحقوق الناس، وأن ما يتعلق بتقويم السلوك الشخصي في مستوى حقوق النفس وحقوق الله يرجع إلى جهد العلماء الذين لا يلامون فوقه.

المرتبة الثالثة: بالقلب، وهي لعامة الناس، فلا يعذر به مؤمن، ومن لم يستطع أن يُنكر بقلبه فلم يترسخ في قلبه حب الله ورسوله، إذ الإنكارُ بالقلب يقتضي بغض المعصية وطرقها وأشكالها والمصرين عليها.

• من مقاصد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من مقتضيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر احترام كل ما يحقق غاياته من حصول المعروف الذي تستقيم به الحياة وتطيب، وزوال المنكر الذي تختل به الحياة وتفسد؛ ومراعاة مقتضيات الاجتماع الذي أذن الله فيه في صلته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ذلك أن كل ما يُتوصل به إلى تحقيق قصد الشارع في سلامة الهيأة الاجتماعية بما يمكنها من إعانة الأفراد على أداء مهمة الاستخلاف مطلوب شرعا؛ قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَالتَّقْوىٰ وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة/3)، إعانة لا يتصور حصولها إلا من خلال:

1. التنبيه على بعض الآفات التي تتنافى مع تقوى الله وتبعد عن الحياة الطيبة، مثل الرشوة، والغش في العمل، وخيانة الأمانة... وغيرها؛
2. قبول الجماعة لما يحصل به انتظامها من قواعد منظمة حامية للأفراد، وهو الأساس الذي بنيت عليه كثير من النظم في تاريخ الإسلام، مثل نظام القضاء، والحسبة، والوقف، والشرط...

ثم إن الغرض من هذه الشعيرة العظيمة أمور كثيرة، ومن نتائجها ثمرات عظيمة، منها:

- القيام بأمر الله، والطمع في الثواب الجزيل، والإعذار إلى الله؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف/164)؛

– حماية المجتمع من الشر والفساد والرذيلة خوفا من عقاب الله وأمنا من غضبه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود/117).

28. أداء الأمانات أداء للحقوق

وصف الله تعالى المؤمنين الصالحين الذين وعدهم الله سبحانه بالحياة الطيبة في الدنيا والآخرة بأنهم يرعون أماناتهم ويؤدونها حق الأداء، قال تعالى: ﴿وَالذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ (المومنون/8). فالأمانة تشمل كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعلاً من أداء للحقوق والمحافظة عليها، فالمسلم يعطي كل ذي حق حقه؛ يؤدي حق الله في العبادة، ويحفظ جوارحه عن الحرام، ويؤدي ما عليه تجاه الخلق، فهي فريضة عظيمة حملها الإنسان، بينما رفضت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها لعظمها وثقلها، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْاَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَالاَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَّحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَاۖ وَحَمَلَهَا ٱلْاِنسَـٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُوماَ جَهُولَا﴾ (الأحزاب/72).

• شمول الأمانة للمسؤوليات والحقوق

الأمانة مفهوم شامل تدخل تحته كل المعاني النبيلة والأخلاق الفاضلة، فهي حفاظ على الدين وقيام بالواجب، وحماية للحقوق وإخلاص في العمل، وأداء كل ما هو واجب عليك، وتصريف كل ما بين يديك في مكانه وفق ما هو مطلوب منك، فليست الأمانة محصورة في المسؤولين ورجال السلطة والقضاء كما يظن البعض، بل لكل منا أمانته ومسؤوليته لو حافظ عليها لحفظ للأمة الكثير من حقوقها وأسهم في بناء مجدها ورقيها. فأي مستقبل ننشده في ظل تضييع الأمانات والحقوق، وأي خير نأمله من كل من وعد الناس

بكل خير ثم مال إلى الخيانة والغش والتدليس، وأي حق لذلك المضيع لحقوق الناس الخائن لأماناتهم.

– **فالدين أمانة في عنق علمائه،** إن بينوه للناس وصانوه من التحريف والتلاعب كانوا أوفياء، وإن لم يفعلوا كانوا مرتكبين لأبشع صور الخيانة، ﴿وَإِذَ اَخَذَ اَللَّهُ مِيثَٰقَ اَلذِينَ اُوتُواْ اَلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَناً فَلِيلاًۖ فَبِيسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (آل عمران/187).

– **والعقل لدى الإنسان أمانة،** إن عمل بمقتضاه وعمل فيه بطاعة الله كان مؤديا للأمانة خير أداء .

– **والمال في أيدي الناس أمانة،** فإن أحسنوا التصرف به والقيام عليه وأداء الحقوق الاجتماعية فيه كانوا أمناء أوفياء، لهم الذكر الجميل في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة، وإلا كانوا مقصرين ظالمين.

– **والأمة في أيدي المسؤولين أمانة،** فإن قاموا بما يجب عليهم نحوها من المحافظة على الدين والنصح والرعاية وصيانة الكرامة والحرية والحفاظ على المال كانوا أمناء أوفياء، وإلا كانوا من أكثر الناس غشا وخيانة.

– **والسمع والبصر واللسان واليد والرجل كلها أمانات في عنقك،** فإن أنت استعملتها فيما يرضي الله وسخرتها لخدمة خلقه فقد حافظت على الأمانة، وإن أنت استعملت اللسان في الغيبة والنميمة، والعين في النظر إلى عورات الناس، والسمع في التجسس على أسرارهم، واليد في البطش والكسب الحرام وأكل أموال الناس بالباطل، والرجل للسعي في الشر فقد خنت الأمانة

وضيعتها، يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء/36).

– **وزوجك وولدك ووالداك وكل من تشترك معهم في أواصر القربى يلزمك النصح لهم وهم أمانة عندك**، فإن رعيت حقوقهم وأسديت لهم الخير، وأبعدت عنهم الأذى كنت قائما بالأمانة أحسن قيام.

– **وحق المجتمع عليك نشر الخير فيه، وإشاعة الطمأنينة أمانة** تلزم بالوفاء بها، فإن لم تفعل كنت مسيئا إلى الناس مضيعا للأمانة.

– **والعمل الذي تقوم به أمانة**، وتضييعه أو الغش فيه خيانة، فالصانع مؤتمن على صنعته، وكل تضييع أو غش أو تدليس فهو خيانة، والأستاذ مؤتمن على تلامذته، والموظف مؤتمن على ما بين يديه.

– **والسر أمانة**، وإفشاؤه خيانة، ولو حصل بينك وبين صاحبك خصام فهذا لا يجيز لك إفشاء سره، فإنه من لؤم الطباع، ودناءة النفوس، ومن أشد ذلك إفشاء السر بين الزوجين، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة: الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه، ثم ينشر سرها**»[1].

فالأمانة تنظم شؤون الحياة كلها: من عقيدة وعبادة وأدب ومعاملة وتكافل اجتماعي وسياسة حكيمة رشيدة وخلق حسن كريم.

---

(1) مسلم، في **كتاب النكاح**، باب تحريم إفشاء سر المرأة، برقم 1437، وأبو داود، في **كتاب الأدب**، باب في نقل الحديث، برقم 4870.

• تقوى الله أساس حفظ الأمانات

ولقد جعل الشرع الحكيم تقوى الله أساسا لحفظ الأمانات على مستوى الفرد من خلال تعريفه بها وقاية لها من أن تضيع بسبب الجهل؛ فإن صيانتها بالعمل متوقف على تصورها بالعلم ضرورة، ولذلك امتلأت الشريعة بالبيان والتفصيل للأمانات وأنواعها، سواء أمانات الدين، أو التبليغ، أو الأسوة، أو الشهادة...؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل/89)، وأوجب الله تعلمها بالسؤال أو بغيره ليسهل تنزيلها الملاحظ لمراتبها من ضروري أو حاجي أو تحسيني، وكذا جهات تعلقها بالخالق وما تقتضيه، أو بالخلق وما يقتضيه كل نوع من القربى، أو اليتامى، أو المساكين، أو الجوار...؛ قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء/36).

ومن تجليات التدين الصحيح مراعاة أمانات الجماعة وحقوقها مما يقتضيه اجتماع أفرادها؛ أي ما ينشأ عن علاقاتهم ومعاملاتهم الجماعية من العهود والالتزامات التي يتعين عليهم الحرص على أدائها والوفاء بها؛ قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران/76)، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء/34)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ (المائدة/1).

إن خيانة الأفراد لأمانات الجماعة له تأثير عظيم في انحلال عرى الثقة اللاحمة لكيانها، ودبيب الفساد إلى أجزائها بما يوشك أن ينخر في جسمها، كيف لا، وهم جزء منها الذي يضعف بما يقومون به من خلخلة كيانها؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء/16).

• من مقاصد حفظ الأمانات

إن مما بني عليه الإيمان والعمل الصالح النظر في محافظة الأمة على أماناتها؛ حيث جعلت أمانة الشريعة من اختصاص الإمامة التي تَطَوَّقَت واجبات الأمة وتحملتها، وذلك من خلال حفظ ما لا يتم حفظ الشريعة إلا بواسطته، وهو الإمامة العظمى التي تضطلع بالقيام بكل ما من شأنه أن يحفظ أمانات الملة صافية من كل صور الإفساد، وكذا القيام بكل ما من شأنه أن يحفظ أمانات الدولة محروسة من كل صور الفتنة والاضطراب، وذلك من خلال الكليات الخمس التي يحفظ بها مقصود الدين من مثل الأمن الذي تصان به النفوس، وضبط البيان الذي تحفظ به الشريعة... حفظا ينبغي أن يعانوا عليه، فإن صلاحهم صلاح للأمة؛ قال الفضيل بن عياض: «لو كانت لي دعوة ما جعلتها إلاّ في السلطان (...) قيل له: يا أبا علي: فسِّر لنا هذا؟ قال: إذا جعلتها في نفسي لم تَعْدُني، وإذا جعلتها في السلطان صلح، فصلح بصلاحه العباد والبلاد»[1].

(1) رواه أبو نعيم في **الحلية**، 91/8، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة 1405هـ.

لقد ارتفعت درجة الأمانة حتى صارت قرينة الدين؛ فلقوة دلالتها على التدين الحق تتم التوصية بها حتى في السفر الذي هو مظنة الارتخاء؛ فهذا رسول الله ﷺ كان إذا وَدَّعَ رجلا قال له: «**أستودع الله دينك، وأمانتك، وخواتيم أعمالك**»[1].

(1) الترمذي، في **أبواب الدعوات**، باب ما يقول إذا ودع إنسانا، برقم 3442؛ وأبو داود، في **كتاب الجهاد**، باب في الدعاء عند الوداع، برقم 2600.

29. الكسب الحلال يورث الطمأنينة

إن الحياة الطيبة هي ما وعد الله به عباده المؤمنين العاملين الصالحات في الدنيا؛ قبل الجزاء الأوفى في الآخرة، وهي حياة أساسها التوحيد الراسخ في القلوب، والعبادة المزكية للنفوس، والأعمال الصالحة النافعة للناس أجمعين، وفي مقدمتها الكسب الحلال الذي ينور القلب ويصلحه، فتزكو بذلك الجوارح، وتُدْرَأ المفاسد، وتكثر المصالح؛ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ**، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المومنون/51)»[1]...، فالحلال الطيب عنوان سعادة العبد، والخبيث عنوان شقاوته؛ فإن أكل الحرام يُصدئ القلب ويُظلمه، وهو من موانع قبول الدعاء والعمل.

• أخذ الحياة الطيبة على أنها حياة العمل والكسب لاستحقاق الأجر

لقد تنبه إلى هذه الحقيقة كثير من أهل العلم لما وصفوا الإسلامَ بأنه دينُ العملِ والعطاءِ والرِّيادَةِ في شؤون الحياة الدنيا. والمؤمنُ قائمٌ يسعى ويعمل ليدركَ خيرَ الآخرةِ والأُولى، تحقيقا لأمر الله تعالى القائل: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة/106)، وما خوطبت

(1) مسلم، في **كتاب الزكاة**، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، برقم 1015، والترمذي، في **أبواب تفسير القرآن**، باب ومن سورة البقرة، برقم 2989.

أمة بضرورة الاهتمام بالعمل قدر ما خوطبت أمة الإسلام. وكما وجه الدين أتباعه إلى المساجد لعبادة الله، وجههم إلى ميادين العمل لتحقيق معاني العبادة في شمولها وكليتها، وقرن بين هذين النوعين من العبادة لـمّا جعل وقت العمل يأتي إثر الانتهاء من العبادة المخصوصة، فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ (الجمعة/10)، وذلك أن العمل في ذاته عبادة يؤجر عليها العبد إن صاحبته النية الخالصة، ويؤكد هذا ما روي **عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَرَّ بِهِمْ رَجُلٌ فَتَعَجَّبُوا مِنْ خَلْقِهِ فَقَالُوا: لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأَتَوَا النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْهِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى وَلَدٍ صِغَارٍ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيُغْنِيَهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ».**[1]

إن تنشئة الأمة على قيم العمل والإنتاج يقي أبناءها مذلة الفقر والتسول، التي تنتقص من كرامة الإنسان، بل إنه قد يثلم توحيده وتوكله على الله حينما يلجأ إلى غيره متسولا ومستغيثا؛ فعلى المؤمن أن يتجنب المسألة وأن يحرص على العمل، وألا يتواكل فيكون عالة على الأمة ومعرقلا لنهضتها ومعطلا لتنميتها.

• تحري الحلال بالحرص على معرفة مصادر الأموال واتخاذ النظيف من الشركاء

أكل الحلال ينور القلب ويصلحه، فتزكو بذلك الجوارح، وتُدْرَأ المفاسد، وتكثر المصالح؛ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

(1) سنن سعيد بن منصور، في **كتاب الجهاد**، باب ما جاء فيما يعدل الشهادة، برقم 2618، والطبراني، في **المعجم الأوسط**، برقم 6835، والبيهقي، في السنن الكبرى في **كتاب النفقات**، باب نفقة الأبوين، برقم 15741.

«**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ**، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المومنون/52)، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ (البقرة/171)، ثُمَّ ذَكَرَ **الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟**»[1]؛ قال الحافظ ابن رجب: «في هذا الحديث إشارة إلى أنه لا يُقبل العمل ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وإن أكل الحرام يفسد العمل ويمنع قبوله». فالحلال الطيب عنوان سعادة العبد، والخبيث عنوان شقاوته؛ لأن أكل الحرام والمشتبه يُصدئ القلب ويُظلمه، ويُقَسِّيه، وهو من موانع قبول الدعاء والعمل مهما كان كثيرا ومتصلا. لهذا كان الصالحون يتحرَّون غاية التحري، ويمحصون في ما يدخل بطونهم، ففي البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إِنِّي لَأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي، فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي، فَأَرْفَعُهَا لِآكُلَهَا، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً، فَأُلْقِيهَا**»[2]، وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: «كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ غُلَامٌ يُخْرِجُ لَهُ الخَرَاجَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الغُلَامُ: أَتَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لِإِنْسَانٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَمَا أُحْسِنُ

(1) مسلم، في **كتاب الزكاة**، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، برقم 1015، والترمذي، في **أبواب تفسير القرآن**، باب ومن سورة البقرة، برقم 2989.

(2) أخرجه البخاري، في **كتاب اللقطة**، باب إذا وجد تمرة في الطريق، برقم 2432، ومسلم، في **كتاب الزكاة**، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون غيرهم، برقم 1070.

الكِهَانَةَ، إِلَّا أَنِّي خَدَعْتُهُ. فَلَقِيَنِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ؛ فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتَ مِنْهُ. فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ، فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ».[1]

• الاكتفاء في العيش بالضروري (الكفاف)

إن الاقتصاد في المعيشة من أهم التدابير التي حض عليها الإسلام لتجنب الوقوع في الظروف الاقتصادية الضاغطة. ومن أهم مقتضياته: عدمُ التبذير، والتوسطُ في الإنفاق؛ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالبَسُوا وَتَصَدَّقُوا، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ**» وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «كُلْ مَا شِئْتَ، وَالبَسْ مَا شِئْتَ، مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ: سَرَفٌ أَوْ مَخِيلَةٌ»[2]. قَالَ الْمُوَفَّقُ عَبْدُ اللَّطِيفِ الْبَغْدَادِيُّ: «هَذَا الْحَدِيثُ جَامِعٌ لِفَضَائِلِ تَدْبِيرِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، وَفِيهِ تَدْبِيرُ مَصَالِحِ النَّفْسِ وَالْجَسَدِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّ السَّرَفَ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَضُرُّ بِالْجَسَدِ وَيَضُرُّ بِالْمَعِيشَةِ، فَيُؤَدِّي إِلَى الْإِتْلَافِ وَيَضُرُّ بِالنَّفْسِ إِذْ كَانَتْ تَابِعَةً لِلْجَسَدِ فِي أَكْثَرِ الْأَحْوَالِ، وَالْمَخِيلَةُ تَضُرُّ بِالنَّفْسِ حَيْثُ تُكْسِبُهَا الْعُجْبَ وَتَضُرُّ بِالْآخِرَةِ حَيْثُ تُكْسِبُ الْإِثْمَ وَبِالدُّنْيَا حَيْثُ تُكْسِبُ الْمَقْتَ من النَّاس»[3]. والسر في ذلك أن الذي يُسرف ويُبذِّر في النفقة من مأكلٍ ومشربٍ وملبسٍ وغيرِها، يقع في الحسرة والندامة، والحرج الشديد؛ لذهاب البركة من رزقه، ونفاد ما بيده.

---

(1) البخاري، في **كتاب مناقب الأنصار**، باب أيام الجاهلية، برقم 3842، والبيهقي، في **شعب الإيمان**، برقم 5386.

(2) أخرجه البخاري في «صحيحه» معلقًا في **كتاب اللباس**، 140/7، وابن ماجه، في **كتاب اللباس**، باب البس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة، برقم 3605.

(3) **فتح الباري**، 253/10، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ.

• عدم أخذ ما للغير

هذا خلق عظيم من أخلاق الإسلام، وأدب من آدابه الرفيعة؛ إذا تخلق به العبد اطمأن قلبُه، وهدأت نفسُه، ونعِمَ بالراحة باله، وسلمت من الحرام جوارحُه. مع خلق من أخلاق الأنبياء، وسمة من سمات الأتقياء، وصفة من صفات أهل الفوز والفلاح الذين يقدرون النعم التي يرفلون فيها ويجتهدون في شكرها، وهم قانعون بما قسم الله لهم استنارة بقول النبي ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**»[1].

إن القناعة شفاء ودواء؛ شفاء من داء الجشع والطمع، وبراءة من الهموم والأحزان، وسلامة من الكراهية والحسد؛ لهذا ذم الإسلام الحرص والطمع، ومدح القناعة واليأس مما في أيدي الناس؛ قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، كُنْ وَرِعًا، تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَكُنْ قَنِعًا، تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ، تَكُنْ مُسْلِمًا، وَأَقِلَّ الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ**»[2].

---

(1) أخرجه الترمذي، في **أبواب الزهد**، برقم 2346، وابن ماجه، في **كتاب الزهد**، باب القناعة، برقم 4141.

(2) الترمذي، في **كتاب الزهد**، باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس، برقم 2305، وابن ماجه، في **كتاب الزهد**، باب الورع والتقوى، برقم 4217.

30. الاقتصاد وحسن التدبير

لقد جاء ديننا الإسلامي متحدثا عن حياتين، الحياة في هذه الدنيا، وهي الأولى، والحياة في الآخرة، وبين كيف يمكن للإنسان أن يعيش حياته في الأرض متمتعا بكل ما فيها من النعم، وهو في الوقت نفسه يهيئ بها للسعادة في الحياة الآخرة، فالله تعالى لم يخلق الحياة الدنيا عبثا بل خلقها لحكمة تفرض على المسلم أن يتأدب معها ويرضى بأمر الله فيها، ويملأها بالخير، فالله سبحانه وتعالى خلق الحياة والموت، والصحة والمرض، والغنى والفقر..، ليختبر الناس في مستوى تدينهم، وإيمانهم بقضاء الله وقدره، وحسن استعمالهم للعقل في تدبير أمورهم الدنيوية والأخروية، وهذا يعني أن من كان شقيا في حياته الدنيا فمِن عدم تدبير هذه الحياة على مقتضى الدين الذي نظم حياة الناس أحسن تنظيم، بالحكمة والمصلحة والعدل وحسن الإرشاد والتعليم، فلم يقتصر على الأمر بالصلاة والزكاة والصيام وسائر شرائع الإسلام فحسب، بل شملت وصاياه الفصيحة، ونصائحه الصحيحة، كل ما يتعلق بحياة الإنسان وحسن معاشرته لأهله وعياله وأقاربه، وتدبير شؤون أمواله وسياستها، وحفظها من الإسراف والتبذير، فقال سبحانه: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾ (الإسراء/29).

• التقوى وحفظ الأموال واستثمارها

لقد جعل الله المال منحة لأقوام، ومحنة على آخرين، وسعادة لأقوام، وشقاء لآخرين فمن أيقن أنه مال الله استخلفه فيه فأحسن تدبيره كان نعمة عليه. ومن

أساء التصرف فيه بالشح والتقتير، ﴿وَمَنْ يُّوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (التغابن/16). أو بالبسط والتبذير والتوسع في النفقات والمبالغة في الكماليات التي تجحف بذهاب المال، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ كان مآله الندم والوقوع في الحسرة ﴿فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾، لهذا بين سبحانه السبيل الصحيح والمنهج القويم في التصرف في المال فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً﴾ (الفرقان/67). وقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُوراً﴾ (الإسراء/26-27). فهاتان الآيتان اشتملتا على تحريم التبذير من وجوه عديدة: **أولها** النهي عنه، فإن الأصل المقرر أن النهي يفيد التحريم، **ثانيها** تأكيد تحريمه بذكر المفعول المطلق ﴿تَبْذِيراً﴾، ثالثها وصف المبذرين بأشنع وصف، ألا وهو أخوة الشياطين الدالة على أنهم حلفاؤهم الملازمون لهم كملازمة الأخ لأخيه، رابعها تأكيد تلك الأخوة بلفظ ﴿كَانُوٓاْ﴾ الذي يستفاد منه أن أخوة الشياطين صفة راسخة فيهم، خامسها تأكيده بجملة ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُوراً﴾؛ لأنه يُخْشَى على من اعتاده أن يتدرج به الشيطان في كفر نعمة المال ثم كفر النعم الأخرى؛ قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (العلق/6-7).

• المال نعمة تستوجب الحفظ

إن دين الإسلام هو دين حفظ الأموال واستثمارها، والاستمتاع بها باعتبارها نعمة من الله، والتوسعة بها على الأهل والأولاد، وصرفها في وجوه

الخير والإحسان، ففي الحديث: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[1]، ومنه أيضا: «**ذهب أهل الدثور بالأجور...**»[2] –أي أهل الأموال– بالدرجات والنعيم المقيم، لحسن تصرفهم فيما استخلفهم الله فيه، بعطائهم سخية به نفوسهم، تحقيقا للتضامن الذي ترتقي به حياة الجماعة لتبلغ الكمال المرجو منها؛ خاصة عند وجود الداعي المتمثل في حاجة بقية الجماعة، والتي ينتفي معها أن يكون لأحد حق فيما يفضل عن الوفاء باحتياجاته التي تستقيم بها حياته؛ فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: «بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له، قال: فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا، فقال رسول الله ﷺ: «**من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له**»، قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل»[3].

إن المال باعتباره عصب الحياة جُعِلَ عِوَضًا تُقتَنَى بواسطته احتياجات الناس الضرورية والحاجية والتحسينية، بالإضافة إلى كونه ملحوظة فيه حقوق الأمة كلها لتوقف حصول مصالحها عليه، ولذا أضافه الله لنفسه فقال: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (النور/33)، وقال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (الحديد/7). وهو يحصل مصالح منها:

---

(1) أحمد، في **مسند عمرو بن العاص**، 299/29، والبخاري، في **الأدب المفرد**، ص 112، وابن حبان، في **كتاب الزكاة**، باب ذكر الإباحة للرجل الذي يجمع المال من حله إذا قام بحقوقه فيه، برقم 3210.

(2) مسلم، في **كتاب الزكاة**، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، برقم 1006، وأبو داود، في **أبواب الوتر**، باب التسبيح بالحصى، برقم 1504.

(3) مسلم، في **كتاب اللقطة**، باب استحباب المواساة بفضول المال، برقم 1728، وأبو داود، في **كتاب الزكاة**، باب في حقوق الأموال، برقم 1663.

– **حاجة الفرد والأسرة**، من أكل ولباس وتمتع بالطيبات من غير إسراف ولا تقتير، فقد منح الله خلقه نعمه وسخر لهم خيراته لتكون راحة لهم ومفتاح الحياة الطيبة التي وعدهم بها: يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ (الأعراف/31-32)، فللنفس حق التمتع بالحياة الطيبة، وللأسرة حق على من يرعاها، يحسن إليهم كما أحسن الله إليه، فعن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ؛ حَفِظَ أَمْ ضَيَّعَ**»[1]، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قَالَ: «**كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ**»[2]، وبقدر هذه المسؤولية يأتي الأجر العظيم والثواب الجزيل.

– **العطاء الذي يبتغى به وجه الله**، وهو خصيصة المؤمن وأساس إيمانه وطمأنينته؛ فهو لا يهنأ أو يشعر بالسعادة إذا كان من حوله أشقياء يعانون العنت وضنك العيش؛ «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحبُّ لِنَفْسِهِ**»[3]؛

---

(1) الترمذي، **كتاب الجهاد عن رسول الله ﷺ**، باب ما جاء في الإمام، برقم 1705، والنسائي، **كتاب عشرة النساء**، باب مسألة كل راع عما استرعى، برقم 9174.

(2) أحمد، في **مسند عبد الله بن عمرو بن العاص**، 36/11، وأبو داود، في **كتاب الزكاة**، باب في صلة الرحم، برقم 1692، والنسائي، في الكبرى في **كتاب عشرة النساء**، باب إثم من ضيع عياله، برقم 9132.

(3) البخاري، في **كتاب الإيمان**، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، برقم 13، ومسلم، في **كتاب الإيمان**، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، برقم 45.

فالسبيل الوحيدة للاستمتاع بالحياة الطيبة هي رفع منسوب العطاء ليعُم الجميعَ الهناءُ. فالبذل ولو من قليل من قيم المجتمع ومكوناته الرئيسة التي لا يجوز أن تغيب عنه، كي يسود الشعور بالمحبة والأمان والطمأنينة، فالعطاء ما أعظم أجره عند الله، وأجدى نفعه على النفس، وأعمق أثره على المجتمع، فالمؤمن الموقن لا يعيش لنفسه فقط، وإنما يعيش لنفسه وللآخرين، ويمنح لهم الخير وينفعهم.

– **أن يوفر من ماله ويبقي منه لغده**، وذلك لأهمية هذا المقصد وعظم هذا المسلك وأهميته في التدبير الاقتصادي المعيشي، ودوره في الحياة الفردية والأسرية والمجتمعية، فالمرء حين يدخر يستعد لتقلبات الزمان وما قد يستجد من تكاليف الحياة، وفي القصة المشهورة مع الرجل الذي جاء يسأل النبي ﷺ، فبعد أن باع له المتاع الذي عنده بدينارين، لم يقل له: أنفق هذا المال في أهلك، بل قال له: «**اشتر بدينار طعاما لأهلك وبالدينار الآخر فأسا وائتني به**»[1]. ففتح له ﷺ مشروعا بأول دينار ادخره.

• من فوائد حسن التدبير

لا شكّ في أنّ حسن التدبير والتخطيط الصحيح للمعيشة، يؤدي إلى:

– التنعّم بحياةٍ طيبة، وهي حسب التعاليم الإسلاميّة حياة الكفاف التي يتمكّن المسلم فيها من تأمين سلامته النفسيّة والبدنيّة، من خلال سعيه الحثيث، واجتناب الإفراط والتفريط في المعاش؛

(1) **شرح معاني الآثار، كتاب النكاح**، باب ما نهي عنه من سوم الرجل على سوم أخيه وخطبته على خطبة أخيه، برقم 4246، والبيهقي، في **شعب الإيمان**، 420/2.

- اجتناب التبذير الذي هو من أعظم صفات التقوى؛ لأنه يقتضي ترويض النفس على القناعة والاعتدال في الإنفاق شهودا لحق الله فيه، وعدم صرفه في وجوه الفساد، ومجاوزة الحد في المباح إلى السَّرَف؛
- الإنفاق في وجوه الصلاح والخير الذي هو أحد وسائل تحقيق فضيلة التضامن التي ضرب لها النبي ﷺ أروع مثل فقال: «**مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مثلُ الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو تَدَاعَى له سائرُ الجسد بالسّهَرِ والحُمَّى**»[1]، قال الإمام الرازي: «وأنْفَقَ بَعْضُهم نَفَقَةً في خَيْرٍ فَأكْثَرَ؛ فَقِيلَ لَهُ لا خَيْرَ في السّرَفِ، فَقالَ: لا سَرَفَ في الخَيْرِ»[2]؛
- ارتفاع مستوى الادّخار وفتح أبواب الاستثمار؛
- سعة الرّزق: فحسن التدبير وإعانة المحتاج وسيلتان لزيادة الرزق وارتفاع مستوى الدخل.

(1) البخاري، في **كتاب الأدب**، باب رحمة الناس والبهائم، برقم 6011، ومسلم، في **كتاب البر والصلة**، والآداب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، برقم 2586.

(2) **مفاتيح الغيب**، 328/20، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1420هـ.

31. الابتعاد عن المهالك من أهم مقاصد الدين

التقوى في حقيقتها اتقاء الذنوب والآثام والمعاصي، واجتنابها لما فيها من الفساد، ولما كان الفساد الذي يُتَّقَى يتفاوتُ في الشر؛ فإن من أعظم الذنوب ما يصح أن نطلق عليه اسم «المُهلِكات» لأنها يعظم خطرها بإفسادها لإيمان المؤمن أو عقله أو بدنه أو عرضه أو ماله حتى يُوبِقَه في الهلاك، فالمهلكات مفسدات للحياة الطيبة، التي لا تتحقق إلا بالسعي إلى تحصيل المنجيات في الأقوال والأفعال، وإلى دفع المهلكات فيهما، والدين يحمي الحياة من مهلكاتها ببيان الحلال والحرام، والعلة الجامعة في تحريم ما حرم الله من الأمور انطواؤها على مفاسد وأضرار تلحق بالإنسان في دنياه وفي أخراه. ولقد صنف العلماء في بيان المهلكات والمنجيات مصنفات من أشملها ما ذهب إليه الإمام الغزالي حينما جعل ربع المهلكات، بعد شرحه لعجائب القلب ورياضة النفس وتهذيب الأخلاق، مشتملا على ما يلي: آفة الشهوتين، آفات اللسان، آفات الغضب والحقد والحسد، والتهالك على الدنيا، والبخل، وحب المال، والكبر والعجب، والغرور. حيث فصل القول في ما لكل منها من تأثير على النفس وعلى الناس وإفساد للدين والدنيا.

• من صور الرذائل المهلكة

تدل على الصور المذكورة آيات كثيرة، منها:

- ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا

وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف/32)؛

- ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُوراً﴾ (الإسراء/33)؛

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالاَنصَابُ وَالاَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة/90)؛

- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنُ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلآَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة/173).

إن هذه الآيات القرآنية وغيرها حرمت قضايا من قبيل: قتل النفس، الفواحش، والإثم، والبغي، والشرك، والقول على الله من غير علم، والميتة، والدم، ولحم الخنزير، والخمر والميسر والأنصاب والأزلام...، والمتأمل يجد الضرر والفساد واضحا فيها، سواء في النفس الواحدة أو الأنفس الكثيرة، وسواء من جهة بدن الإنسان، أو من جهة عقله وفكره، أو من جهة نفسه وروحه. وهذه كلها علل التحريم للحفاظ على الدين والنفس والعقل، وهي من الكليات التي جعلتها الشريعة في أعلى الرتب، فشرعت لها أحكاما تحفظها وجودا بما يقيمها وعدما بما يصونها، ومثل هذا يقال في سائر المحرمات في الدين، والمهلكات للحياة الطيبة.

ومن هذه المهلكات قتل النفس أو الانتحار الذي اعتبره الإسلام من كبائر الذنوب والآثام لما في ذلك من إنهاء حياة الإنسان التي أعطاها الله له، وأمره بحفظها، فيكون المنتحر متعدّياً على ما استأمنه الله عليه قبل أن يتعدّى على نفسه ويظلمها، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**من تردّى من جبلٍ فقتل نفسَه، فهو في نارِ جهنمَ يتردّى فيه خالدًا مخلَّدًا فيها أبدًا، ومن تحسّى سمّاً فقتل نفسَه، فسمّه في يدِه يتحساه في نارِ جهنمَ خالدًا مخلَّدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسَه بحديدةٍ، فحديدتُه في يدِه يجأُ بها في بطنِه في نارِ جهنمَ خالدًا مخلدًا فيها أبدًا**»[1].

وقد بين النبي ﷺ ثلاث رذائل مهلكة من خلال الحديث النبوي الشريف: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**»[2]. وهذا حديث جليل يؤسس لوجود ذنوب تبلغ درجة عظيمة في إهلاك صاحبها في الدنيا، واستحقاق العذاب في الآخرة.

وليس مقصوده ﷺ حصر المهلكات فيها، وإنما بيان معنى كونها مهلكة، والمتأمل فيها يجد أنها تشترك إما في سلب الاختيار بسبب تحولها إلى عادات مستحكمة، أو في خطورتها على الكليات الضرورية التي جاء الدين لتحقيقها وحمايتها من الفساد؛ وهي الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال، ولذا يلحق بها ما كان مثلها مما هو محسوس لا يُرَدُّ لتحقق وقوعه.

– **ويقصد بالأولى**: البخل والتطلع إلى ما في أيدي الناس، مما يؤدي إلى التباغض والتحاقد بين الناس، والامتناع عن العطاء والتضامن والتعاون على البر والتقوى.

---

(1) البخاري، في **كتاب الطب**، باب شرب السم والدواء به وبما يخاف منه والخبيث، برقم 5778، ومسلم، في **كتاب الإيمان**، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، برقم 109.

(2) **مسند البزار**، 486/13، برقم 7293، والطبراني، في **الأوسط**، 328/5، برقم 5452.

– **ويقصد بالثانية**: اتباع الفرد ما يزينه لنفسه بنفسه، أو حينما يكون ذلك سلوك جماعة بأكملها، حيث يحُول الهوى بينها وبين اتّباعها للحق مهما كان واضحا وكانت حجة دامغة. وقد كان هذا سببا في هلاك أمم كثيرة، مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ممن يصدق قول الله تعالى فيهم: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (القصص/50).

– **ويقصد بالثالثة**: تضخم شعور الإنسان بالعجب والكبر والترفع على الآخرين، وذلك أن يعجبَ الإنسان بنفسه، أو بجهاده في سبيل الله، أو بقراءته القرآن، أو يعجب بعمل يقوم به أمام الناس، أو للناس؛ مما يحيد به عن أخلاق التواضع التي نص عليها القرآن الكريم في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُوراً﴾ (النساء/36-37)، وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي ٱلأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ (لقمان/17- 18). وتتعاظم هذه المهلكات حين تصبح إدمانا يتدرج فيه الإنسان من الإقبال على المهلكة مع علمه بضررها ونهي خالقه عنها واطلاع ربه عليه وهو يواقعها، ثم المعاودة والتكرار؛ وفيها هلكة اشتداد الغفلة، وتحول مزاج القلب من كراهية الذنب إلى الفرح بالظفر به، ثم الإصرار عليه، إذ التكرار يجر إلى الإصرار، وهو أعظم من الذنب، ولذا قرر أهل العلم أنه «لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار»؛ وأخيرا يصل إلى مرتبة الإدمان؛ وهي التي لا يبالي فيها صاحبها بالمجاهرة بها مع

ما فيها من قلة الحياء من الرب سبحانه، ولهذا ورد في الحديث: «**كل أمتي مُعافًى إلا المجاهرين**»[1].

• المنجيات من المهلكات

إذا كانت المهلكات مفسدات للحياة الطيبة، فإن المنجيات هي روح وأساس هذه الحياة. ومن المنجيات التي ذكرها الامام الغزالي وغيره من العلماء: التوبة، والصبر والشكر، والخوف والرجاء، والفقر والزهد، والتوحيد والتوكل، والمحبة والشوق، والأنس والرضا، والنية والصدق والإخلاص، والمراقبة والمحاسبة، والتفكر، وذكر الموت وما بعده. وكلها مكارم وفضائل تدور عليها رحى الدين وتتأسس عليها الحياة الطيبة.

ومن المنجيات أيضا تحديد الأسباب التي تدفع الإنسان إلى قتل نفسه، والتي تكون غالبًا بسبب اليأس، أو اضطراب نفسي مثل الاكتئاب أو الهوس الاكتئابي أو الفصام أو إدمان الكحول أو تعاطي المخدرات. وغالبًا ما تؤدي عوامل الإجهاد مثل الصعوبات المالية أو المشكلات في العلاقات الشخصية دورًا في ذلك. ويمكن تجاوز هذه المسببات بتربية الأبناء على احترام الأمانات، ومعالجة الميول الوراثية إلى الانتحار، وإقامة علاقات عاطفية وعقلانية بين الأفراد داخل الأسر والجماعات، وحماية الأبناء من الإدمان برعاية إنسانية، ومتابعة ذكية للتصرفات وإغداق الحنين المطلوب، والتربية على حسن تدبير الموارد.

---

(1) البخاري، في **كتاب الأدب**، باب ستر المؤمن على نفسه، برقم 6069، ومسلم، في **كتاب الزهد والرقائق**، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه، برقم 2990.

هكذا سلك الإسلام في معالجة المهلكات طرقا تختلف بحسب توفر شروط النجاعة؛ وأهمها: التنبيه إلى المنجيات والتوبة من المهلكات، عملا بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (الشورى/25-26). وقد جعل العلماء للتوبة الصحيحة والسليمة شروطا، منها: الندم على الفعل، والإقلاع عنه، وإرجاع الحقوق إلى أهلها، وأن تكون قبل الوفاة.

32. الترغيب في الزواج

إن من الظواهر المؤرقة للأفراد والجماعات ظاهرة العزوف عن الزواج أو تعذر أسبابه أو عسره، أو تأخر سنه، وهو الواقع الذي يطرح إشكال التدبير والمعالجة من أجل تجنب ما يترتب عنه من تهديد لأمان الأسرة وتفكك المجتمع وضياع الأنساب وإغلاق أبواب الحلال وشيوع الفاحشة وانتشار الأمراض وتهديد رسالة الأمة. ولعل من أنجع مداخل المعالجة ما انبنى على التوعية والتحسيس بأهمية الزواج وفضله ومقاصده تشجيعا عليه وتذليلا لخطوات السعي إليه وإزالة للحواجز النفسية المانعة منه.

والناظر في دين الإسلام يلحظ أن أحكامه وتشريعاته تتسم بالقصدية والغائية كما تدل على ذلك النصوص القرآنية والحديثية الشاهدة على امتناع العبث في الخلق والتكليف على السواء، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة المومنون، الآية 116)، وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (سورة الحديد، الآية 24). والزواج من المفاهيم الشرعية التي حظيت في الإسلام بقيمة خاصة، فهو من سنن الله في الكون والخلق، ومن شرائعه التي لا تخلو من مقاصد وغايات:

أما من حيث قيمة المفهوم فإن الزواج عهد وميثاق غليظ، أضفى القرآن الكريم عليه هذه الصفة لما ينبغي له من قوة ومتانة ورجاء دوام واستمرار، قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾ (سورة النساء، الآية 21).

وأما من حيث سنيته، فهو فطرة إنسانية، ونعمة إلهية، وسنة شرعية من سنن الأنبياء، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً

وَذُرِّيَّةً﴾ (سورة الرعد، الآية 38)، وآية من آيات الله في الكون، قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الروم، الآية 20).

وأما من حيث المقاصد والغايات، فإن للزواج غايات معتبرة ومصالح مقدرة دينية ودنيوية منها:

- ✓ تعبد الله بطاعته وتحقيق كمال الدين، فقد جاء في حديث عبد الله بن مسعود d أن النبي ﷺ قال: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج**...»[1]، وقد شرعه الإسلام بابا من أبواب تيسير غيره من الطاعات ومنها عمارة الأرض التي تتحقق بالكثرة الصالحة المستقيمة التي تضطلع بهذا الدور فتقيم الشريعة وتصلح الأرض وتعلي الدين: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ (سورة هود، الآية 61)، وتوسيع دائرة القربى، وتقوية أواصر الترابط والتضامن والتناصر التي تنشأ عن النسب والمصاهرة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ﴾ (سورة الفرقان، الآية 54).
- ✓ حفظ النسل واستمراره، وبقاء النوع الإنساني جيلا يسلم أمانة الاستخلاف للذي يليه، وسلامة الأنساب وربطها بأصلها، وحفظها من التفكك والضياع، والإبقاء على وشائج القربى والرحم.

(1) البخاري **كتاب النكاح** باب من لم يستطع الباءة فليصم برقم 4779، ومسلم **كتاب النكاح** باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد برقم 3464.

- ✓ صيانة النفس وتحصينها من الفواحش المؤدية إلى ضياع الأعراض وانتشار الأمراض واختلاط الأنساب وشيوع المفاسد، وتحصيل العفة وتهذيب السلوك وحماية المجتمع من الرذائل، وذلك بصرف الغريزة عن التطلع إلى الحرام وإروائها بطريق مشروع يحفظ كرامة الإنسان ويليق بمكانته.
- ✓ تحقيق الأمن الأسري والاجتماعي، وذلك بما يتيح الزواج من السكينة التي تجمع معاني الاستقرار والأمان والأنس والطمأنينة، قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (سورة الأعراف، الآية 189)، وإقامة حياة طيبة مستقرة مبنية على المودة والرحمة وحسن الصحبة والمعاشرة بالمعروف...

لهذه المقاصد الأصلية وغيرها من المقاصد التبعية رغب الإسلام في الزواج وشجع عليه تارة بذكر غاياته وحِكمه وبيان بركته واعتباره سببا لتذليل العقبة المادية التي تمنعه، قال تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (سورة النور، الآية 32)، وتارة بالنهي عن الانقطاع عن شؤون الدنيا والسير على طريقة الرهبانية التي تصادم حاجة النفس البشرية، وهو ما نبه إليه النبي ﷺ في حديث الرهط الذين قدموا على بيوت رسول الله ﷺ يسألون عن عبادته عليه السلام، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، وعزموا على الزيادة عليها، فكان منهم من هَم بالتبتل وترك الزواج حتى يفرغ للعبادة، فرد النبي ﷺ عليهم بقوله: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس**

مني»[1]، فنفى بذاك أن يكونوا على هديه وطريقته إن خالفوه بترك الزواج وإن كان من أجل العبادة.

كما دعا الإسلام إلى تيسير أسباب الزواج للشباب، والعمل على منع ما يحول بينهم وبينه إما بالمشاركة والتعاون، أو بجعل البركة في أقل الزواج مؤونة، أو بوعد المتعففين عن الحرام بتيسير الزواج، أو بالدعوة إلى عدم رد الخاطب صاحب الدين والخلق..

ولا شك أن تحقيق مقصد التوعية بما تقدم مسلك من مسالك الحياة الطيبة المرجوة في الدنيا من سكينة البيوت واستقرار الأسرة وصلاح الذرية وصحة النفوس والأبدان وأمن الأوطان، وفي الآخرة من النعيم المقيم بالفوز بما أعده الله تعالى لعباده الصالحين المصلحين.

(1) البخاري **كتاب النكاح** باب الترغيب في النكاح برقم 4776، ومسلم **كتاب النكاح** باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم برقم 3469.

33. الديـــن والتقليـــل من كلفـــة الحـيـــاة لـــدى الأفراد والجماعات

كان الإسلام عبر التاريخ، ولا يزال، رافدا أساسيا مزودا بالمعنى والقيم الضرورية للإنسان، في سعيه لإنجاز عمرانه وحضارته، وفي تدبيره لقضايا معاشه وأمنه؛ وكل ما تستلزمه الحياة الفردية والجماعية، التي لابد لها من وازعين ينظمان شؤونها؛ وازع القرآن وهو: المعنى في الحياة ومكارم الأخلاق؛ ووازع السلطان وهو: النظام والقانون، الذي به يكون انضباط الجماعة وانتظام أمرها. وكلا الوازعين يسهمان في توفير أمن الأفراد والجماعات، وفي استقرارهما حيث يمكن لمشاريع التنمية والعمران أن تأخذ سبيلها إلى النمو والازدهار.

فالدين إذن، يسهم بالمعنى والهدف الذي يرسمه للحياة، وبمثله وأخلاقه السامية، في ترشيد كلفة هذه الحياة والتخفيف من ثقلها على كاهل الدولة، والرفع من وتيرة سيرها وإنجازها؛ ويقلل من الخسائر الباهظة التي تترتب عليها، حينما تتنكب طريق الهدايات التي يرسمها، ومعايير التدبير الأمثل للموارد التي بين أيدي الناس، والمسؤولين منهم على السياسات العمومية بشكل خاص.

إن تأخر أي نموذج تنموي وحضاري، كما عليه أن يسائل نفسه عن العدة المادية للنهوض، عليه كذلك أن يسائل نفسه عن مدى سلامة المعنى والغاية التي ينشدها، وعن سلامة الأخلاق العملية السائدة فيه. وتلك أهم مداخل الترشيد الديني لمسار التنمية والتحضر.

• الإنسان المتخلق فاعل أساس في التنمية

من منظور ديني وحضاري معا، الإنسان المستخلف هو المكلف بالعمران والتنمية والحضارة، والمسؤول عن المسخرات والمقدرات التي جعلها الله تعالى بين يديه، وعلى حسن تدبيرها دون تبذيرها والعبث فيها. ولهذا يبقى سلوكه الشخصي المسدد والمرشد بروح الشرع والقانون، أو المنفلت منهما، حاسما في تحديد مصير أي نموذج تنموي وحضاري. إن الدين داعم أساس، بتحريمه ومنعه، لكل السلوكيات المُدانة قانونا: جريمة، وإسرافا، وتبذيرا، وإدمانا، ورشوة، وظلما، وعدوانا، وإهلاكا للنفس، وغير ذلك. إذ يحوط، من جهة، كل ذلك بموانع أخلاقية تحول دون الوقوع فيها؛ ويؤسس، من جهة أخرى، لإقامة الأصول وجودا: في صون الأنفس، والأموال، والعقول، والأعراض، والعدل، والإنصاف، والحق، وغير ذلك. ولا شك في أن تَحقق المواطنين بهذا التخلق، من شأنه أن يُخفض الكلفة المادية والمعنوية في كثير من مؤسسات الدولة، في الصحة والعدل والأمن والقضاء، وسائر القطاعات ما دام الفاعل الأساس فيها الإنسان.

ونذكر من أهم مداخل الوازع الديني إجمالا، التي من شأنها أن تثمر نموذجا للإنسان السوي في العمل التنموي والحضاري ما يلي:

أ- **إيمانه بالله تعالى وبوظيفته الاستخلافية**، أي الإيمان بالله تعالى خالقا ورازقا، ومالكا مدبرا لهذا الكون، حيث تتحدد وظيفة الإنسان فيه باعتباره مستخلفا فيه استخلاف تشريف وتكليف؛ وهذا يوفر له تصورا حقيقيا عن وجوده ودوره في الحياة والمعنى المراد فيها؛

ب – **تحققه بمنظومة القيم ومكارم الأخلاق**، التي يزود بها الدين أتباعه، والتي هي اقتباس من أسماء الله الحسنى؛ يتخلق بها الناس ويستهدون بها في حياتهم كلها. ولا يخفى دورُها في تزكية النفس، وتهذيب الطباع السيئة، ومحاربة كل أضرب الفساد في سلوك الإنسان. وسواء تعلق الأمر هنا بقيم وأخلاق الدين، أو ما عاضَدَها من قيم وفضائل العقل والعادة والعرف، فكل ذلك مشمول بنسق القيم المنفتح والمستوعب لكل الحِكم والفضائل؛

ج – **الإيمان باليوم الآخر**، حيث تترتب جزاءات الأقوال والأفعال، فاستحضار هذا الوازع يجعل المكلفَ حريصا على حسن وسلامة أقواله وأفعاله، طلبا للثواب وتجنبا للعقاب. وهذا من شأنه تقويم السلوك المدني والاجتماعي، وهو ما يسهم بدوره، إتقانا وإحسانا، في مسار التنمية والتأهيل الحضاري، والتقليل من كلفة الحياة والخسائر المترتبة عليها؛

د – **منظور الإسلام للعمران والحضارة المدنية**، باعتبارها من مهام الاستخلاف، ومن رقي الإنسان الفكري والعلمي؛ حيث يدعم الإسلام مسار العلم والتعلم، والفكر والتفكر، والنظر التاريخي في سنن الأولين، والاجتهاد في التدبير وتقنين النظم والتشريع؛ كما يحض على الارتفاق بالبيئة والطبيعة ومواردها، والكائنات الحية فيها.

• من ثمار التخليق الديني للحياة

إن خلاصة المداخل السابقة تتجلى في إسهامها في ترشيد تدين الإنسان، ليكون في حالة السواء والاعتدال، المؤهلة للإسهام في التنمية والتحضر، والسلوك المدني المشترك. فهي خلفيته الإيمانية والسلوكية التي يصدر عنها في كل شيء، ومن ثمارها العملية نذكر:

- الاقتصاد في تدبير الموارد وعدم تبذيرها، ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ (الإسراء/27).
- عدم الإسراف في الاستهلاك، ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ (الأعراف/31).
- عدم الاستسلام لترف التكاثر، المتجاوز لحد الحاجة، ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ (التكاثر/1-2).
- علاقة الإنسان بالإنسان، باعتبار الأخوة والمواطنة، وصون الحقوق المختلفة، وواجب التعاون، ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ﴾ (المائدة/2).
- علاقة الإنسان بالأرض، باعتبارها مجال استخلاف ومسؤوليته في حفظ مواردها، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة/30). ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود/61).
- علاقة الإنسان بالزمن باعتباره حيزا للإنجاز، وفترة حياة هي في أصلها ابتلاء، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك/2).

- إقامة التوازن والعدل والإنصاف في المسؤوليات الفردية والجماعية، بين الواجبات والحقوق، والحريات المختلفة، وسائر الالتزامات، ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ (النساء/135).

إن وجود هذه العناصر، أو معظمها، غدا أمرا ضروريا في ترشيد مسارات التنمية والتحضر؛ وعلى خلاف المؤشرات الحالية في رصد التنمية الدولية، حينما تركز على الحسابات والأرقام والشكل الكمي، فهي وإن كانت ضرورية، لا تكفي في التعبير عن نموذج التنمية المتوازن. خصوصا وأن البشرية اليوم أضحت تعاني من اختلالات بيئية وصحية كبرى نتيجة هذا التوجه، ولذلك فإن المنظور الديني، الذي ألمحنا إلى بعض جوانبه، يضفي على تلك المسارات والمؤشرات، بعدا معنويا وقيميا أخلاقيا، يغطي مساحات النقص الموجودة فيها.

ـ ب ـ فعل الخيرات

34. العطاء الواجب

يعتبر فعل الخيرات أحد أبرز مقتضيات العمل الصالح، وهو في المفهوم القرآني يدل على الطاعة وبذل المعروف والعطاء والإحسان وغيرها من المعاني. وهو يفسح المجال واسعا أمام العطاء الواجب والعطاء التطوعي ويدفع المؤمن بعيدا في سبيل سد الحاجات وإغاثة المحتاجين.

• العطاء الواجب تنمية ووقاية

إن العطاء الواجب نوع من الإحسان الإلزامي، ذكر القرآن معناه بلفظ الزكاة تارة وأخرى بلفظ الصدقة، وقد يكون بلفظ الإنفاق، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (البقرة/43) وقال سبحانه: ﴿خُذْ مِنَ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة/103) وباعتبار الزكاة ركنا من أركان الإسلام يجب أداؤه امتثالا لأمر الله وابتغاء لمرضاته، فقد أقام الإسلام ذلك على أساسين قويين، وهما: النص التشريعي المرغِب، والشعور الوجداني من داخل النفس، فزاوج بين هذه القوة وتلك، مثيرا في الوجدان الإنساني أعمق انفعالاته، بحيث لا يمكن أن يفهم الأمر على أنه مجرد مواعظ

وآداب وأخلاق، وهو ما يتعين تبصير الناس به، لأن العطاء خلق واستعداد ينبغي أن يؤكد عليه التبليغ الديني والتوجيه التربوي في الأسرة والمدرسة.

ومن الغلط في الفهم كذلك تصور العطاء الواجب المتمثل أساسا في الزكاة صدقة يقدمها الإنسان للآخر حُنُوّاً و عطفا، إذ هو فريضة من الفرائض تجب في أوقاتها، وكلما كانت هناك حاجة وضرورة تدعوان إلى البذل والجود والإحسان، فهو شكر لله على مدده ذلك أن عطاء الإنسان وإنفاقه يعتبر امتدادا لعطاء الله تعالى الذي هو العطاء الكامل والواسع الذي يعم جميع مخلوقاته. قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ (الإسراء/20).

بالمقابل نجد أن وقوع الإنسان في البخل والشُّحّ ينطوي على عدم التحقق بمقتضيات الايمان وعدم الإقرار بقيمة العطاء المستمد من عطاء الله تعالى. فالمال إذا استولى على ضمير الإنسان البخيل كان حجابا له عن الله.

لذلك عمل الإسلام على اقتلاع جذور البخل والشح من النفوس وترسيخ خلق البذل والعطاء باعتباره واجبا من الواجبات. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُّوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر/9)، فالإسلام يقدر غريزة حب المال، ويقر أن الشح حاضر في النفس الإنسانية لا يغيب. ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ (النساء/127)؛ إلا أنه يعالج هذا كله علاجا نفسيا بمختلف وسائل الترغيب والتحذير والحض والتصوير الفني.

• الزكاة تطهير وتزكية

إن الزكاة ما سميت زكاة إلا لما يكون فيها من رجاء البركة والنماء وتزكية النفس، أي تنميتها بالخيرات والبركات، فبتطهير النفس وتزكيتها تظهر ثمرة الزكاة وأثرها الإيجابي في حياة الذي تؤخذ منه، فيستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة وفي الآخرة الأجر والمثوبة، فالفوز بخيري الدنيا والآخرة لا يحرزه إلا من نجح في قمع دوافع الشح والبخل في نفسه، وعَودَها على حب البذل والإنفاق وإخراج الزكاة، ولذلك فالتطهير والتزكية الواردتان في الآية يشملان كل تطهير وتزكية، سواء كانا ماديين أو معنويين.

فالتطهير يحمل بعدا روحيا وساميا، نظرا لارتباطه بمفهوم تخلية نفس المزكي المستخلَف في المال من أسباب التعلق بحب الدنيا، وجعلها تسعد بالبذل أكثر مما تسعد بالأخذ. أما البعد المادي فيظهر واضحا في إغناء المحتاجين من جهة، وفي النماء الذي يخلُف إخراج جزء قليل من المال الكثير. قال ﷺ: «**ما نقص مال عبد من صدقة**»[1]، ولذلك لا تخلو أي عبادة من منافع دنيوية لصاحبها تدخل في بناء وتحصيل الحياة الطيبة، وإذا لم تظهر ثمرتها في هذه الحياة مما هو واقع لدى كثير من الناس، فذلك دليل على أن تلك العبادة لم تؤد بإخلاص.

أما التزكية فتحتمل بعدا روحيا يتجلى أساسا في تحقيق معنى التوحيد وجوهر الإيمان في نفس المزكي وإعلاء أمره تعالى على شهوات النفس

(1) أحمد، في **مسند أبي كبشة الأنماري**، 561/29، والترمذي، في **أبواب الزهد**، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، برقم 2325.

ورعوناتها، فتكون بذلك ترقية لنفسه وإصلاحا لها وتربية على محاسبتها. وثمرتها الالتزام بأحكام الدين وأخلاقه، بحيث تؤدى حقوق الله وحقوق النفس وحقوق الغير من الناس.

كما أن البعد المادي المتمثل في نماء المال وحصول بركته ظاهر لا يخفى. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ (سبإ/39)؛ وقال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ (الروم/38)؛ ولما كانت الحياة وما فيها ينسب إلى الله تعالى فإن الأبعاد الروحية تبقى مرتبطة بالأبعاد المادية محققة بذلك أسمى مقاصد وثمرات إخراج الزكاة.

• الزكاة حق واجب وفريضة اجتماعية

إن مما ينبغي بيانه وتبليغه بشأن الزكاة وأثرها في حياة الإنسان باعتبارها العطاء الواجب الأمثل، التأكيد على وجوب إخراجها وفرضية أدائها، وما دام الإسلام قد أعلى من شأنها ورفعها إلى درجة الوجوب فهي حق الله على أصحاب المال، يجب عليهم إيتاؤه وعدم التفريط فيه، كما أنه حق المحتاجين يتطلعون للحصول عليه، إنها شعيرة يجب رعايتها بترغيب الناس في أدائها بالنظر إلى كونها ركنا ركينا من أركان الإسلام طالما قرن القرآن المطالبة به بإزاء المطالبة بأداء الصلاة دلالة على قوة الاتصال بينهما، فالحرص على أدائها من صفات المؤمنين الموقنين، والأخيار المحسنين المتحققين بمقتضيات الإيمان والعمل الصالح، فلا يستهين بأمر الزكاة إلا من هانت عليه نفسه ومجتمعه وإنسانيته فعاش سجين بخله وأنانيته غير عابئ بآلام المحتاجين والمضطرين.

والزكاة من جهة أخرى توقظ في نفس المزكي شكر الله على نعمه العديدة، واعترافه بمنه وفضله عليه فالشكر يتحقق أكثر بالبذل والإنفاق، يقول الإمام الغزالي: «إن لله عز وجل على عبده نعمة في نفسه وفي ماله، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن والمالية شكر لنعمة المال، وما أخَس من ينظر إلى الفقير وقد ضُيق عليه الرزق وأُحوج إليه، ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إعفائه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله»[1].

ومما ينبغي الاهتمام به أنه إذا كانت الزكاة حقا للمحتاجين في أموال الأغنياء، فيجب أن تُنزل حسب الوجوه الممكنة على المكاسب المالية المتنوعة التي يستفيدها الإنسان في كسبه، وذلك وفق الاجتهادات الفقهية المعتبرة التي تربط ما أوجب فيه الإسلام الزكاة بشرط النماء. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج/24-25)، فيصبح كل مال نام مصدرا للزكاة ووعاء لها، فالغني كيفما كان مصدر مكاسبه المالية يبقى دائما في حاجة إلى أن يتطهر ويتزكى، ولا يكون ذلك إلا بالبذل والإحسان، كما أن كل مال في حاجة إلى أن يتطهر بإخراج زكاته، إذ المالك الحقيقي للمال هو الله تعالى، والإنسان ليس أكثر من مستخلَف فيه، فيكون لإخوانه من الفقراء وذوي الحاجات حق في ماله، وهو ما يفهم من عموم كثير من النصوص القرآنية والحديثية.

وإذا كان بعض الناس يلتبس عليهم أمر إخراج نسبة من أموالهم بين إخراج الزكاة وأداء الضريبة للدولة فإن مما ينبغي بيانه وتوضيحه للناس الفرق الواضح بين أداء الزكاة التي هي عبادة مالية، لها مصارفها ومستحقوها ممن لهم حق في

(1) **الإحياء**، 214/1، دار المعرفة، بيروت.

أموال من تجب عليهم، وبين أداء الضرائب مقابل الخدمات العمومية المختلفة التي تطالب بها الدولة وتنفقها في تحقيق أهداف تعود على المجتمع بالخير.

• من ثمرات العطاء الواجب

إن الإخلاص لله تعالى جوهر العطاء، فكلما أخلص المؤمن في عطائه وصدق في توجهه الخيري عاد عليه ذلك بثواب الله وأجره العظيم، فضلا عن حصول ثمرات ذات أثر بالغ في التغيير من أجل بلوغ أحسن الأحوال، سواء على المعطي أو على المجتمع، ولعل من أبرز تلك الثمرات:

- أن المعطي يتصف بأسمى صفات الإيمان والعمل الصالح الدالة على الرقي في مراتب النفوس المفضية إلى درجات البر والإحسان، المقتضية لحصول الحياة الطيبة. إنه نموذج المعطي المتقي يقابله نموذج البخيل المستغني. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ (الليل/5-7)؛
- أن العطاء الواجب يعزز حالة السلم المجتمعي بين مختلف الطبقات والشرائح الاجتماعية، فيُعان المحتاج على تجاوز حاجته، ويُحسَن إلى الضعيف لإصلاح ضعفه؛
- إن العطاء الواجب يسهم في التخفيف من الآثار السلبية للفقر والهشاشة وإزالة نقاط التوتر في المجتمع في أوقات الأزمات وعند وقوع الكوارث وانتشار الأوبئة، ويبعث في المجتمع الاستقرار والسكينة، ويساعد على التقليل من الأعباء الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع والدولة.

35. العطاء التطوعي

إن منظومة القيم الأخلاقية التي تبنيها وتنضجها التوجيهات القرآنية والنبوية في نفوس المؤمنين هي التي تعطي لمفهوم العطاء والجود معناه القيمي في أبهى صوره وأسنى مقاصده. ففعل الخيرات يفسح المجال واسعا أمام العطاء الواجب والعطاء التطوعي، إذ يرتبط بمدى سيطرة المؤمن على سلطة المال، التي غالبا ما يصعب التحكم فيها وقهرها. وهو ما يقتضي ندب الناس باستمرار للعطاء، وحثهم على الإنفاق. وإذا كان العطاء الواجب يمثل استجابة لما افترضه الله تعالى في باب الإحسان إلى الآخر بشكل مُلزم، فإن العطاء التطوعي يبقى مرتبطا بمدى استجابة النفس الخيرة المعطية الباذلة والمتحققة بمعاني الإيمان ومقتضيات العمل الصالح، حيث يعطي المؤمن أكثر مما يُفترض عليه، وينفق أكثر مما يجب عليه، إيمانا منه بأن أداء الشعائر والأركان لا يكتمل وتتحقق ثمراته إلا بالعطاء.

• العطاء مدد من الله المعطي لا ينحصر في الزكاة

إن المؤمن يستمد قوته وقدرته على العطاء من صفة «المعطي»، التي هي من أسماء الله الحسنى، المشتملة على معان عظيمة، لذلك فهو كثيرا ما يدعو بقوله «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت» [1]. وبالتأمل في هذا المعنى نجد أن ثمرات وتجليات «المعطي» هي التي تنعكس على حياة المؤمن في بذله وسخائه بكل شيء، لأن الكل من عند الله، فتحصل له محبة الله والثناء عليه والتوجه إليه وحده.

(1) البخاري، في **كتاب الأذان**، باب الذكر بعد الصلاة، برقم 821، ومسلم، في **كتاب المساجد ومواضع الصلاة**، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، برقم 593.

لقد جاءت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية داعية إلى العطاء والإنفاق، ومحذرة من الشح والبخل. قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة/245)؛ فالقرض، وإن كان بمعنى إسلاف المال ونحوه بنية إرجاع مثله، إلا أنه قصد به في الآية –كما قال الطاهر ابن عاشور– الحث على الإنفاق لوجه الله في طرق البر[1].

إنه فوق الحقوق المفروضة هناك حقوق مالية تشكل موارد مهمة لإعانة الفقراء والمحتاجين يتعين بيانها للناس وتذكيرهم بها، إذ مما يخطئ كثير من الناس في فهمه بخصوص العطاء أن مجاله ينحصر في إخراج الزكاة فقط، أو أنه يقتصر على بذل المال فحسب. وهو فهم يضيع على المحتاجين الاستفادة من كثير من الحقوق، ويفوت على المجتمع تجاوز العديد من الآفات والمفاسد. كما أن من المفيد التذكير بأن العطاء يتأتى من المال القليل والمال الكثير على السواء، فكل من يملك شيئا، مالا كان أو غير مال، يجود بقسط منه على من هو دونه.

• العطاء التطوعي وِجاءٌ من فتنة المال

إن العطاء التطوعي جانب عظيم في دستور الأخلاق الاعتنائية التي يدعونا إليها القرآن الكريم، ويسميها الإحسان تارة والبر تارة أخرى، وينادي بها كل ضمير إنساني حي، وهو باتخاذه صبغة إنسانية عند انتشار الفقر والحاجة وأثناء وقوع الكوارث والآفات، وكذا في الظروف العادية، يقلل من الوقوع

(1) **التحرير والتنوير**، 481/2، الدار التونسية، تونس، 1984م.

في فتنة المال، ويشجع على بناء المصلحة العامة المشتركة على مستوى التعاون والتآزر والتعاضد. لذلك وجب الحرص في مهمة التبليغ على الدعوة إلى التخفيف من حب الدنيا والتعلق بشهواتها عن طريق تزهيد الناس فيها والتقليل من قيمتها حتى لا يكون التعلق بها مانعا من البذل والعطاء. قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلاَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام/33)، ويمكن اعتبار وقوع كثير من الناس في بعض الاختلالات والمفاسد على مستوى نمط العيش وتدبير الحياة عائقا يحول دون تمثل حقيقة الإيمان الذي من مقتضياته شكر الله تعالى، فهو المعطي الوهاب الرزاق. والإنسان مجرد مستخلَف على المال. قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (الحديد/7).

ولعل من بين ما يتأكد بيانه وتبليغه للناس في سياق ترغيبهم في البذل والعطاء ضرورة التحلي بالقيم والمبادئ الآتية:

- تجنب الإسراف والتبذير، قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف/31)؛
- القناعة، أي الرضى بما قسم الله، مع قمع النفس في تطلعها إلى ما يفيض عن حاجتها؛
- التملك باعتدال، وسبيله البلوغ بالنفس إلى مستوى النفس اللوامة، فيكون المؤمن مداوما على محاسبة نفسه غير غافل عنها؛
- اتقاء فتنة الأموال والأولاد وزخرف الحياة الدنيا، فقد صار أكثر الناس مفتونين بحب الدنيا، مستغرَقين في طلب زخرفها ومستسلمين للتكاثر.

• العطاء التطوعي مجال واسع للبذل

إن العطاء التطوعي في عصرنا الراهن يشكل شبكة خدمات تعاونية واسعة ومتنوعة تسهم بقوة في تحسين أوضاع وظروف شرائح اجتماعية عديدة في المجتمع، فمجاله واسع لا يقتصر على المال، بل يكاد يغطي جميع المبادرات الخيرية على مستوى الأفراد والمؤسسات ويشمل مجالات واسعة بحاجة إلى العون والمواساة، وهو بذلك يشكل رافدا مهما للحياة الطيبة للمجتمع المتضامن. فمن ذلك أن نجود بالنفس والمال: قليله وكثيره، ونبذل أعز ما نحرص عليه، وأن نقتحم كل ما يمكن من أنواع البر، من صدقة وهبة ووصية ونصيحة ومساعدة وإصلاح ذات بين وكلمة طيبة وغيرها مما يتعين توضيحه وبيانه، فكثير من الناس لا يدركون فرص وأنواع العطاء التي يتيحها العصر مما يشكل مجالا رحبا يتسع للعديد من أعمال البر والخير، المندرجة ضمن مسالك العمل التطوعي، وقد أرشدنا رسول الله ﷺ إلى أن أعمال التطوع عديدة لا تنحصر، فقد جاء في الحديث: «**تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة**» [1]. والذي يمكن استفادته من الحديث ويتم التأكيد عليه أن القيام على مصالح الناس يعتبر عطاء مأجورا في جميع الأحوال. فالصدقة التي تنتج عن خدمة الناس والقيام على مصالحهم وتحقيق منافعهم هي أجر وجزاء.

(1) الترمذي، **كتاب البر والصلة**، باب ما جاء في صنائع المعروف، برقم 1956، والبزار، في **البحر الزخار**، مسند أبي ذر، برقم 7419.

وبذلك تكون قيم العطاء والبذل بجميع أنواعها، ابتداء من الكلمة الطيبة إلى الإنفاق مما يملك الإنسان من مال أو عمل أو وقت ترمي إلى بناء المجتمع الخيري الذي هو الغاية المنشودة لتحقيق سعادة المجتمع ورفاهيته، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الحج/77).

إن ميدان العطاء التطوعي قطاع واسع من أشكال البر والبذل والجود، وجاء هذا القطاع ليفتح مجالات رحبة لتجارب مختلفة، تجعل الفرد المؤمن المفعَم بإحساس نبيل قادرا على تجاوز ذاته وأنانيته من أجل إسعاد الآخرين وتخفيف آلامهم، ومن المفيد في هذا السياق التذكير بتجربة الشيخ أبي العباس السبتي، أحد رجالات مراكش السبعة، التي هي من أكثر التجارب الذوقية المؤسسة على تحرر وجداني وشعور نفسي باطن، إدراكا لقيمة الجود وأهمية الإنفاق الذي كان يراه واقعا في مقدمة أعمال التدين الصحيح، وهو ما لا يستوعبه كثير من الناس نتيجة فهم سيء لا يحسن إدراك مقاصد الدين وحِكمه، فالتقرب إلى الله تعالى يكون عن طريق العمل الصالح وإسداء الخير للغير، كما أن قيمة العبادات إنما يُقويها أو يُضْعفها مستوى وحجم إنفاق المتعبد، لذلك كان مذهبه أن الزكاة المفروضة ليست سوى منطلق أساس لمجال واسع من العطاء، وأن الوجود إنما ينفعل بالجود، متحققا في ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ﴾ (سبإ/39).

• من ثمرات العطاء

لما كانت مقاصد الشارع شديدة الارتباط بالقيم الأخلاقية فإن قيم العطاء والبذل والجود تؤدي إلى مقاصد عامة وثابتة من مقاصد الشريعة، تخدمها

في اتجاه بناء المجتمع الخيري، ومن هذه المقاصد التي هي بمثابة ثمرات يجدر تأملها والسعي إلى تنزيلها:

- تحقيق الحرية الشاملة المخَلِّصة من إغراءات الحياة، وهو مقصد دقيق من أبرز مقاصد العطاء التطوعي داخل المجتمع، فإذا كانت التوجيهات القرآنية في أكثر من موضع قد رغبت في تحرير الانسان من العبودية، واعتبرت ذلك من أعظم الخيرات وأزكى القربات، فإن الأمر ينسحب كذلك على كل ما يقيد حرية الشخص ويجعلها مكبلة بأعباء الحياة وفتنة المال والمعاش؛
- رفع كفاءة الناس في الإسهام في بناء الحياة الطيبة من خلال تعزيز أواصر التعاون، وهو ما يمكن توفيره عبر أشكال متنوعة من التبرع والمساعدة والمواساة لمن هم أقل مستوى في العيش؛
- فتح المجال واسعا أمام الخيرين والمتبرعين من الناس للبذل والعطاء خارج دائرة العطاء الواجب، فهو مجال واسع للمشاركة المجتمعية من الأفراد، كل حسب إمكاناته وقدراته. وهذا المقصد الاجتماعي إنما يتحقق بتجاوز النظرة الضيقة لمفهوم الإحسان الاجتماعي إلى مفهوم أرحب يُرتقى به إلى استهداف قدرات المحتاجين إلى العمل والكسب وتوعيتهم بأهمية الانخراط في مشاريع الإنماء الواسعة من خلال تعلم الحرف والصناعات واكتساب المهارات والقدرات، وهو ما يتحقق بصورة أبلغ من خلال الربط بين الجهود الحكومية وجهود المجتمع المدني في سبيل تحقيق التنمية المستدامة.

إن التوعية بقيمة وأهمية العطاء التطوعي وأهمية توجيهه في كافة السبل ولجميع الناس تعود بالنفع والفائدة على المجتمع والوطن، فهي تؤدي إلى تخفيف العبء الاقتصادي والاجتماعي على الأسر والمجتمع والدولة، وتدفع بروح التعاون إلى توفير الإمكانات وتجاوز الإكراهات والتحديات، وتحقيق الاستجابة لاحتياجات المجتمع وتطلعاته إلى حياة أسعد وأرغد.

36. أخلاق العطاء للمحتاجين

إن فعل الخيرات الذي هو أمر مدرَك بالفطرة الخيرة والتنشئة الحسنة معروف يبادر إليه الناس انطلاقا من القيم الإيجابية التي يؤمنون بها ويتعارفون عليها، وهو الذي يعطي لمفهوم الخير معناه الأخلاقي في أبهى صوره وأبلغ مقاصده عن طريق تقديم العون والعطاء وتحقيق جميع سبل المؤازرة والمساعدة للمحتاجين. وقد ذكر الله تعالى في قوله ﴿وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة الحج، الآية 57) الركنين الأساسين اللذين تقوم عليهما الحياة الإنسانية الصالحة: عبادة الله بإقامة فرائضه، وفعل الخيرات وهما أمران كفيلان بتحقيق الفلاح والصلاح، أي الرضى والسعادة في الدنيا والآخرة.

• في الحاجة إلى أخلاق العطاء

تعتبر أخلاق العطاء للمحتاجين مجالا خيريا واسعا يعكس رؤية المؤمن بدوره الأساس في المجتمع على مستوى الاستجابة والقدرة تتجاوز الذات والأنانية الراسخة في طبعه من أجل إسعاد المحتاجين وتخفيف آلامهم. إلا أن الإشكال الحاصل بهذا الصدد أن كثيرا من الناس مهما التزموا بالشعائر الدينية في الجملة إلا أنهم بوقوعهم في الشح والبخل لا يتحققون بمقتضيات الإيمان والعمل الصالح فتغلبهم نفوسهم وتستهويهم شهواتهم، فلا يعبأون بمن هم بحاجة إلى العون والمساعدة ولا يلتفتون إليهم. فنجد مثلا أن الزكاة التي فرضها الله تعالى حقا للفقراء والمحتاجين في أموال الأغنياء النامية لا تكاد توقظ في نفوس الكثير من الناس شكر الله المعطي على نعمه وأفضاله. كما أنهم لا يدركون أن

المالك الحقيقي للمال هو الله تعالى. لذلك، عندما تقل أخلاق العطاء وتتراجع قيم البذل والإنفاق تكون هناك حاجة مهمة إلى تعزيز مهام التبليغ والتوعية في جميع أصنافها بأساليب وسبل الترغيب والندب المحققة للمقصود من التشبع بأخلاق العطاء الواجب والمندوب وقيم التعاون والتضامن والنفع العام وتمثُلِها جميعا، فالناس كثيرا ما يغفلون عن دورهم الاجتماعي في الحياة فيحتاجون إلى من يرغبهم في عمل الخير والمبادرة إلى البذل والعطاء.

ولتحقيق ذلك يتعين العمل على ترسيخ خلق البذل والإيثار واقتلاع جذور البخل والشح من النفوس، فالإسلام يقدر غريزة حب المال ويقرر أن الشح متمكن من النفس الإنسانية، فيطلب منها أن تتضامن مع الغير وتجود بما هو حبيب إليها عزيز عليها: قال تعالى ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (سورة آل عمران، الآية 19). وقال ﷺ : «**يقول العبد مالي مالي إنما له من ماله ثلاث ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو أعطى فاقتنى وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس**»[1] وبذلك يسرع الإنسان الى فعل الخير، فيصل إلى غاية البذل وأكرم العطاء النابع من أعماق النفس، فيُغلب جانب التضامن على جانب الاستئثار ويُعلي من جانب الوجدان على حساب الغريزة.

وإذا كان التشبع بأخلاق العطاء مرتبطا بمدى سيطرة الإنسان على سلطة المال الغريزية، فإن علاقة الإنسان بالمال تبقى علاقة مضطربة بسبب ما يغلب عليه من حب شديد له وسعي إلى كسبه واكتنازه. ولا شك أن منبع مشاكل المجتمع فيما يعتريه من تفاوتات على مستوى العيش الكريم هو اختلال علاقة النفس بالمال حسب فهم الناس وإدراكهم ، لذلك يتعين على المبلغين إثراء

(1) صحيح مسلم، **كتاب الزهد والرقائق**، حديث رقم: 2959.

هذه الفكرة بالأمثلة والشواهد الحية وتوضيح مستويات علاقة الإنسان بالمال التي تتحول من علاقة مؤقتة أو وهمية إلى علاقة أبدية حين يتم الإنفاق منه على المحتاجين.

• كمال التوحيد يتحقق بأخلاق العطاء

إن المنطوق الجلي لكثير من نصوص القرآن الكريم في موضوع العطاء يربط توحيد الله تعالى بقضايا عملية وسلوكية ذات عمق بليغ تتصل بالبذل والإنفاق، فقد جاء في القرآن أن الهوى قد يتخذ الها، قال تعالى : ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (سورة الفرقان، الآية 43) وسمى القرآن عطاء الله بأنه رزق وعطاء الإنسان بأنه إنفاق، وأن المؤمن يستمد قدرته على العطاء من عطاء الله سبحانه ، وكل إقتار أو إمساك إنما هو إخلال بهذا القانون الذي ينبغي بيانه وتوضيحه للناس، فكل ما في الكون ناتج عن مدد الله بمقتضى قوله تعالى ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾(سورة الإسراء، آية 20) كما أن صفاء التوحيد إنما يتحقق كاملا عندما يكون بمقدور المرء التحكم فيما يملك من خلال الاقتناع بأنه مجرد مستخلَف على المال، قال تعالى ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (سورة الحديد، الآية 7).

لقد ذهب بعض كبار الصوفية إلى أن العطاء للمحتاجين ينبغي أن يكون في مقدمة أعمال التدين، وهو ما لا يستوعبه كثير من الناس، فعبادة الله وتوحيده عن طريق تمثُّل أخلاق العطاء للمحتاجين مما يجب وضعه ضمن الأولويات في علاقة الإنسان بربه وبغيره ، إذ العطاء باب عظيم في دستور أخلاق البر

والإحسان، فهو الطريق لتعزيز التزكية المنشودة والشرط العميق لتحقيق التوحيد في كماله وشموله.

إن واجب التبليغ يقتضي –من جهة أخرى– التأكيد على أن أخلاق العطاء هي القيمة العظمى في تدين الإنسان وحسن ربطه بالغاية من هذا التدين التي هي حصول الحياة الطيبة، لذلك تعين ندب الناس إليها باعتبارها الفعل الأمتن من فعل الخيرات.

• أخلاق العطاء: آثار ومقاصد

– إن اخلاق العطاء للمحتاجين قطاع واسع يشمل كل المجالات والشرائح الاجتماعية التي تحتاج إلى العون والمواساة كما تستوعب جميع أشكال البر والبذل والجود الموجهة إلى الفئات الهشة.

– الزكاة باعتبارها فريضة مالية لا تعدو أن تكون منطلَقا لمجال رحب من صور العطاء، فهناك حقوق مالية عديدة تشكل موارد مهمة لإعانة المحتاجين ينبغي تذكير الناس بها.

– إن أخلاق العطاء لا تقتصر على إنفاق المال للمحتاجين بل تندرج في إطارها خدمتهم والقيام على مصالحم والاستجابة لتطلعاتهم.

– إن قيمة التعبد بمختلف العبادات إنما يُقويها أو يُضعفها سلوك المتعبد في مجال العطاء والإنفاق سواء كان المال قليلا أو كثيرا.

– إن أخلاق العطاء للمحتاجين تحقق مقاصد هادفة وعميقة هي بمثابة ثمرات يجدر استخلاصها والعمل على استثمارها منها:

أ- الإسهام في بناء الحياة الطيبة من خلال توفير أشكال عديدة من البذل والإنفاق ومساعدة المحتاجين وتحسين أحوالهم الاجتماعية؛

ب- توفير أعمال الخير المتنوعة التي تسهم في معالجة الفقر والأخذ بأيدي المحتاجين وحل مشاكلهم مما يسهم في تعزيز الأمن المجتمعي؛

ج- نضج الوعي الاجتماعي في تعزيز العمل التضامني إزاء المحتاجين الرامي إلى تحقيق التنمية البشرية الشاملة وانتشار سبل التعاون والتراحم بين أبناء المجتمع؛

د- حصول آثار تربوية على نفس المعطي التي تسعد بالبذل أكثر مما تسعد بالأخذ ما دام المعطي لا يشعر بنقص شيء مما بذله أو أنفقه مصداقا لقوله ﷺ «**ما نقص مال عبد من صدقة**»[1]، وهو التعبير العملي عن الشكر في أبهى صوره فيزاوج بين حمد الله تعالى والتقرب إليه بأخلاق العطاء.

1 سنن الترمذي، **كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ**، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، حديث رقم 2325.

37. التعاون والتضامن

تتميز الشريعة الإسلامية بكونها ناظمة لجميع تصرفات الإنسان وأفعاله، هادفة من ذلك إلى إسعاده في الدنيا والآخرة، فقد اهتمت بتهذيب نفسه وتنقية وجدانه من صفات الشح والبخل والأنانية، وحثه على البذل والعطاء، ودفعت به إلى ترقية سُلم البذل والإيثار والتعاون، والتضامن مع الآخر. ولما كان العطاء رياضة لتقوية النفس وتنميتها بوقايتها من الشح كان ذلك سبيلا لإيجاد مجتمع التضامن والتعاون وهو المجتمع الذي لا يمكن أن تقوم له قائمة إذا سادت فيه الأنانية. ولذلك نظر الإسلام إلى الأمة على أنها أمة خيرة متضامنة، تتقوى بانتظام أفرادها فيما يخدم مصالحهم ومنافعهم.

لقد جاء حديث القرآن الكريم عن الأمة الإسلامية مرتبطا في معظم السياقات بإبراز وظيفة اجتماعية إنسانية محددة، يتم الترغيب في أدائها في إطار من المسؤولية الأخلاقية المشتركة، الهادفة إلى بناء المجتمع الخيري، القائم على أسس التعاون والتكافل والتضامن. فقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ (آل عمران/104)، ودعا إلى فعل الخير في قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الحج/77)، فيكون فعل الخير الذي هو عنوان التعاون والتضامن مع الآخر أمرا مدركا بالفطرة الخيرة والتنشئة الحسنة، يبادر إليه الإنسان الخير المتضامن انطلاقا من القيم الإيجابية التي يؤمن بها.

• التعاون ضرورة إنسانية واجتماعية

يعتبر مبدأ التعاون بين أفراد المجتمع، الذي يوجبه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَالتَّقْوىٰ ۖ وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ ۖ﴾ (المائدة/3)، ضرورة إنسانية واجتماعية لا يستطيع الناس الاستغناء عنها، وهو تعاون على ترك كل ما من شأنه أن تسوء به أحوال الإنسان المادية والمعنوية.

إن مفهوم الآية يوجب على المؤمنين أن يتعاونوا فيما بينهم على فعل البر والتقوى، ففائدة التعاون تيسير العمل، وتوفير المصالح، وإظهار الاتحاد والتناصر، أي تعاونوا على التوسع في فعل الخير وعلى تجنب كل ما يضركم في الدين والدنيا، ولا تعاونوا على إثم من الآثام، ولا على لون من ألوان الجور والظلم والفرقة، أما قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ ۖ﴾ فتأكيد لمضمون ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَالتَّقْوىٰ ۖ﴾، لأن الأمر بالشيء، وإن كان يتضمن النهي عن ضده، فالاهتمام بحكم الضد يقتضي النهي عنه بخصوصه. والأمر في الآية يقتضي تبصير الناس وتوعيتهم بأنواع التعاون على البر والتقوى، وتجنب التعاون على الإثم والعدوان.

• من أنواع التعاون

إن أنواع التعاون على البر تعُم فعل كل ما من شأنه تحقيق الخير والصلاح للإنسان، مما يندرج في إطار المعاملات وعلاقات الناس بعضهم ببعض، وهو يعني العطاء في كل المجالات وفي جميع الأحوال ولجميع الناس، ففعل البر يشمل جميع الأعمال والمبادرات الإنسانية التي تنتظم بها مصالح الناس

ومنافعهم، والإتيان بخصال الخير المأمور بفعلها، والإحسان إلى المحتاجين. إنه التعاون على القيام بالأعمال الصالحة وتحقيق كل ما أمر الله به قولا وعملا. أما أنواع التعاون على التقوى، فتشمل التعاضد على توخي كل ما نهى الله ورسوله عنه والتعاون على القيام بجميع مقتضيات مرتبة التقوى التي تتحقق بفعل الواجبات وترك المنهيات.

وترتبط أنواع ما ينبغي تجنب التعاون فيه من الإثم والعدوان بسائر ما يفسد العلائق الاجتماعية بين الناس، مما يدخل في دائرة الإثم الجماعي، والوقوع في الشر المنهي عنه، ولذلك جاء في قول حذيفة ﷺ: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه»[1].

فالإثم كيفما كان ينبغي التحرز منه، وكذلك العدوان الذي هو الاعتداء على الآخر، سواء كان بقول أو فعل، ويدخل فيه العدوان النفسي، والإعانة على الظلم، كما يعتبر الخروج على الإمام بغيا وتعاونا على الإثم والعدوان. قال ﷺ: «**من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة مات مِيتة جاهلية**»[2].

• التعاون بين الوجوب والندب

إن التعاون المطلوب أداؤه يمتد إلى آفاق رحبة وواسعة ليشمل جميع الجوانب الروحية والاجتماعية والاقتصادية، وتتفاوت درجاته بتفاوت مستويات الحاجة والضرورة، فقد يدخل في إطار الواجب، وصوره عديدة

(1) البخاري، في **كتاب المناقب**، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم 3606، ومسلم، في **كتاب الإمارة**، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، برقم 1847.

(2) مسلم، في **كتاب الإمارة**، باب باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، برقم 1848، والنسائي، في **كتاب تحريم الدم**، باب التغليظ فيمن قاتل تحت راية عمية، برقم 4114.

ومتنوعة بحسب حاجات الناس الضرورية مثل التعاون فيما لا يستطيع أن يقوم به الواحد وحده من أعمال البر، والتعاون في إنكار المنكر وردع الظلم وإغاثة الملهوفين وغير ذلك. وكثير من النصوص القرآنية والنبوية التي تحث على ما يخدم مبدأ التعاون في صيغة الأمر والطلب يُفهم منها الوجوب لكن هناك مجالات للتعاون ترتبط بقضاء الحوائج واصطناع المعروف والعطاء التطوعي والإعانة الحاصلة بين الأشخاص ويدخل فيها إعانة شخص لآخر أو إعانة شخص لمجموعة من الناس أو الإعانة المندوبة بين مجموعات من الناس وغير ذلك جاءت جميعها على سبيل الندب تقوية لروابط الأخوة وتنمية للعلاقات الفاعلة بين الناس.

إن العلماء من جانبهم مدعوون في تبليغهم إلى بيان مختلف أوجه التعاون التي تخدم مصالح الناس في مختلف المستويات، سواء كان تعاونا على المصالح وقضاء الحاجات التي يضطر إليها المضطرون، أو تعاونا تديره الجمعيات الخيرية والمؤسسات التضامنية التي تتميز أهدافها بأنها نفعية لا تتغيى الربح، وتندرج كلها في إطار التعاون الجماعي والمؤسساتي المطلوب تشجيعه وتعزيزه في عصرنا الراهن، خاصة عندما تتجه صور التعاون إلى توفير التعليم والشغل والعلاج والصحة والعيش الكريم للناس.

• العمل التضامني نشاط اجتماعي مشترك

إن التضامن سلوك يعبر عن وعي الناس فرادى وجماعات بالمسؤولية المشتركة الرامية إلى تحقيق المصالح والمنافع التي تجمع بينهم، وتسهم في توثيق عرى التعاون والتآزر بين الناس، ومعالجة اختلالات توزيع الثروة التي ينتج

عنها انتشار الفقر والحاجة سواء في إطار الأسرة أو الجماعة أو الوطن، أو في إطار العلاقات الإنسانية العامة. فالعمل التضامني لم يعد مجرد جهود فردية، بل صار نشاطا اجتماعيا واعيا، تبلور اليوم في أشكال عديدة تستحق أن تغتنمها المبادرة الخيرية ويتم التشجيع عليها.

إن الإسلام –وهو يحث على قيم التضامن والتعاون– يضعها في إطار من القداسة، ويعتبرها الطاقة الكبرى لبناء المجتمع الخيري وترقية الحس الاجتماعي لدى الجماعة مما يدل على أهمية التبصير بها والتوعية بفضائلها،لأنها تتعلق بواقع الحياة اليومية التي تجمع الإنسان بأخيه الإنسان، فكثير من المشاكل الاجتماعية والفوارق الطبقية وتفاوت المستويات المعيشية منبعها تراجع النزعة التضامنية بين الناس، وضمور الإقبال على العمل الصالح.

إن مركزية العامل الديني في المجتمع الإسلامي تعطي لقيم التضامن والتعاون واستمرار أثرها في النفوس قوة وثباتا، ولذلك نجدها تستمد روحها وقوتها من مجموعة من الدعائم والأسس، لعل أبرزها دعامة الأخوة التي يعلنها الإسلام مبدأ وينادي بها فريضة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُومِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات/10). ولا شك أن تقرير الإخاء بين اثنين هو تقرير للتضامن بينهما في المشاعر والأحاسيس، وفي المطالب والحاجيات من أجل تخفيف حاجة أو حالة أو مواجهة لمتطلبات العمل الخيري الآني أو المستدام.

• من مقاصد ترسيخ قيم التعاون والتضامن

من المفيد التأكيد على أن مبادرات التعاون والتضامن والتراحم، القائمة على أسس متينة تثمر مقاصد جليلة ونتائج عميقة، فهي تسهم في بناء الحياة

الطيبة التي تتحقق بها استقامة أحوال الناس وتحسُّن ظروفهم، مما ينتظم به أمر الجماعة الساعية إلى تخفيف الآلام وتحصيل المنافع. فالمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه وأعوانه، وما لا يستطيعه الفرد قد تستطيعه الجماعة، ولعل من التعاون المطلوب ذي الثمرات والنتائج العظيمة قيام أرباب الأموال بالتعاون مع الجمعيات الخيرية والمؤسسات المعنية برعاية الضعفاء والمرضى وذوي الحاجات من الناس.

ويشكل انخراط أفراد وهيئات المجتمع الخيرية في العمل التضامني إعانة لجهود الدولة ومؤسساتها، وتقليصا لأعبائها اجتماعيا واقتصاديا. فأعمال الخير التي تسهم في توفير المدارس والمعاهد والمستشفيات وغيرها شاهدة على مدى قدرة العمل التضامني على خدمة الشأن العام وتنمية المجتمع وتأهيله، فضلا عن الإسهام في بناء النموذج التنموي الشامل،خاصة في عصرنا الراهن الذي يموج بالمشاكل الاجتماعية والأزمات الاقتصادية، مما أثر سلبا على مستوى الاعتزاز بقيم التعاون والتضامن وتمثلها والاستمرار في تعزيزها وترسيخها.

إن مقاصد التضامن المجتمعي لا تنحصر في تقديم التكافل المرتبط بأنشطة الإغاثة والمساعدة العينية والمادية للمحتاجين فحسب، وإنما تنسحب كذلك على المشاريع التنموية والخيرية التي يقف وراءها نضج الوعي الاجتماعي لدى الناس ممن استوعبوا مقاصد الشريعة في تعزيز مبادئ التعاون والتضامن والتكافل، فيثمر بذلك العمل التضامني بناء المواطنة الفاعلة والصادقة التي من شأنها الإسهام في تحقيق التنمية البشرية من خلال المشاركة المسؤولة في تعزيز المعاني العميقة للنزعة التضامنية.

38. إصلاح ذات البين

• وجوب الصلح بين المسلمين

خلق الله تعالى الناس مختلفين في مواهبهم وقدراتهم، وفي أرزاقهم ومعاشهم، وفي معظم أحوالهم؛ وسن لهم الى جانب سنة الاختلاف سننا أخرى هي آدابٌ وقيم، وأخلاقٌ وفضائل، تنصلح بالأخذ بها أحوالهم وتنتظم علاقاتهم. ومن أظهرها اصلاح ذاتِ بينهم، في حال الخصومة والتنازع، وحضور الأهواء وغلبة الأطماع. وسواء تعلق الأمر بالأزواج أو الأقارب، أو أبناء الحي والمجتمع، فإن الإصلاح يبقى من أوكد ما أوجبه الشرع، لاستعادة مفهوم الأخوة الجامعة بين المسلمين، ومفهوم المحبة المؤلف بين قلوبهم.

يشهد لما تقدم كثير من نصوص القران والسنة، منها قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُومِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (سورة الحجرات، الآية 10)، ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ﴾ (سورة الأنفال، الآية 1)، وقول النبي ﷺ: «**لا تحاسَدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبِعْ بعضكم على بيع بعضٍ، وكونوا -عباد الله- إخوانًا؛ المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يخذُله، ولا يكذِبه، ولا يحقِره، التقوى ها هنا -ويشير إلى صدره ثلاث مراتٍ- بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرامٌ: دمُه ومالُه وعِرضه**» (رواه مسلم)؛ وقيل في سبب وروده عن سويد بن حنظلة قال: خرجنا نريد رسول الله ومعنا وائل بن حُجر، فأخذه عدو له، فتحرج القوم أن يحلفوا،

وحلفت أنه أخي فخُلِّي سبيله، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرته أن القوم تحرجوا أن يحلفوا، وحلفت إنه أخي، قال: «**صدقتَ، المسلم أخو المسلم**»، وأخرج أحمد عن سويد بنحوه، ولفظه: «**كنت أبَرَّهم وأصدقهم. صدقت، المسلم أخو المسلم**». (أخرجه أبو داوود، والسيوطي في أسباب ورود الحديث).

وقيل في بيان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُومِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: «أي في الدين والحرمة لا في النسب، ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب» (الجامع لأحكام القران للقرطبي). وفي بيان قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾: «أي بين كل مسلمَين تخاصما» (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي). وأما قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، فقيل: «هذا تحريج من الله على المومنين أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم (...) حين اختلفوا في الغنائم في بدر» (جامع البيان للطبري).

• شمول الصلح لأحوال المسلمين

حث الله تعالى على فعل الخيرات وجعل الإصلاح بين الناس من أبرزها، كما في قوله عز وجل: ﴿لاَّ خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَيٰهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوِ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُوتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (سورة النساء، الآية 114). ولهذا أيضا جعل الله تعالى الصلح كلَّه خير ولا يأتي الا بالخير، كما في الآية الكريمة «وَالصُّلْحُ خَيْرٌ». فالصلح خير من الفراق حالَ حصول المُشَاحَّة بين

الأزواج، لقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوِ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَنْ يُّصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (سورة النساء، الآية 128). وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَآ إِنْ يُّرِيدَآ إِصْلَٰحاً يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ (سورة النساء، الآية 35). ولا يخفى أن هذه العناية التي أولتها الشريعة للصلح بين الأزواج وفي الأسر، هي عناية بالمحضن الأول الذي تتربى فيه الأجيال، وتكتسب طمأنينة النفس واستقامة السلوك، بما يجعلها مؤهلة للنفع العام في بلدها؛ أو يقع العكس إذا انعدمت تلك الطمأنينة والرعاية والاستقامة، بحيث يصير مفتقدها عبءً على المجتمع يفسد فيه أكثر مما يصلح.

ويتعدى إصلاح ذات البين مجال الأسرة ليشمل الدماء والأموال، وكل المعاملات والعلاقات بين الناس، إذ مدارها على تبادل المنافع والمصالح المشروعة بالمعروف، وإقامتها على العدل والقسط المراعي للحقوق والواجبات، وتجنب الظلم والإساءة الى الغير ما أمكن. فبالصلح تحقن دماء المومنين لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُومِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ (سورة الحجرات، الآية 9). وبالصلح كذلك تصان أموالهم، وتتحسن علاقاتهم، وتنتظم معاملاتهم؛ والإصلاح فيها بين الناس مقدم على الاحتكام الى القضاء، الذي مهما أنصف فهو لا يزيل أثر الضغينة من النفس، ومما ورد في رسالة عمر بن الخطاب الى ابي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «رُدَّ الخصوم حتى يصطلحوا، فإن فصل القضاء يورث بينهم الضغائن» (رواه عبد الرزاق في المصنف، وابن أبي شيبة في مصنفه). وفي

رواية: «وعليك بالصلح بين الناس ما لم يستبن لك فصل القضاء» (الوثائق السياسية، حميد الله).

إن ما تقدم من معاني جليلة، في الصلح والأخوة والسعي بالخير والنفع بين الناس؛ لو اطرد العمل على إشاعتها في البيوت بين الأسر وفي المجتمع، لما وقعت الشحناء والبغضاء ولما وقع البَيْنُ والبعد بين النفوس، الذي يحتاج الى تدخل المصلح لتضييق شقة الخلاف ودرء الجفاء الحاصل بين الناس. لكن لما كان هذا الأمر واقعا لا محالة بينهم، لما جُبلوا عليه من حب المنافع والشهوات، جعل الله تعالى من الصلح وسيلة لرد النفوس الى أصل طبيعتها في المحبة والأخوة، والتعاون على البر والتقوى. ولو فُقد هذا الإصلاح لفسدت البيوت، ولانتهكت الحرمات، ولخربت المجتمعات، ولما أمكن للأمة بقانونها وقضائها أن تحل جميع المنازعات.

• ثواب المصلح وثمرات الصلح في الحياة

إن السعي بالصلاح والإصلاح بين الناس، لهو من أعظم العبادات والطاعات التي يتقرب بها المرء الى الله تعالى؛ بل نجد في أحاديث كثيرة تقديمَه على كثير منها، فعن أبي الدرداء قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا بلى، قال: إصلاح ذات البين. وفساد ذات البين هي الحالقة**» (أخرجه الامام أحمد والترمذي وأبو داوود).

وعن ابن عمر أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول اللّه، أَي الناس أحب إِلى اللَّه؟ وأي الاعمال أَحب إِلى اللَّه؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «**أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم، أو**

تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة، أحب إلى من أن أعتكف في هذا المسجد [المسجد النبوي] شهرا، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رضا يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجة حتى تتهيأ له، أثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام، وإن سوء الخلق ليُفسد العمل كما يفسد الخل العسل» (أخرجه ابن أبي الدنيا، كتاب قضاء الحوائج).

إن إصلاح ذات البين من المهام والوظائف النبيلة، التي يتصدى لها أولو العزم والمروءة، وذوو الإرادة والنيات الحسنة، بالحكمة والترفق المطلوبين في معالجة آفات النفوس، وإخماد الضغائن والأحقاد فيها. فذلك مما ينبغي الحرص عليه طلبا لنفع الناس بجلب المنافع والخيور إليهم، ودفع المفاسد والشرور عنهم. ولإحلال السكينة والوئام بين الأزواج والأبناء في البيوت، وبين الناس في الأحياء والمجتمع؛ وتوفير فرص البناء والتنمية بالتعاون لا بالتشاحن. وتلكم من أهم أسباب الحياة الطيبة المبنية على الايمان والعمل الصالح، ويكفي الساعي اليها بالإصلاح ثوابا قوله تعالى: ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ (سورة الأعراف، الآية 170).

39. نفع الناس عامة

لعل من أهم شروط الخيرية التي ذكرها القرآن الكريم في سياق دعوته إلى فعل الخيرات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران/110).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمعناه الشامل يستوعب، بالإضافة إلى الجوانب الدينية والسلوكية، الجوانب الاجتماعية والتنموية من عطاء واجب وتطوعي وتعاون على البر والتقوى. ويأتي ضمن أهدافه تحقيق النفع العام للناس.

• نفع الناس إسعاد لهم وإنماء للمجتمع

إذا كان المعروف هو كل ما تعارف الناس على قبوله والعمل به ونفع الناس وتحقيق مصالحهم وتطلعاتهم، فإن بذل المعروف هو طريق لإيصال النفع للناس وقضاء حوائجهم بالقول والفعل، فالله تعالى يدعو الإنسان في حياته إلى تسخير طاقاته في اصطناع المعروف وإيصال النفع للناس، ووهبه هذه الطاقات لكي يحمله مسؤولية بذلها لعامة الناس فيما يحتاجون إليه، وتصريفها فيما يفيدهم وينفعهم. وينسحب مفهوم الناس على المسلمين وغير المسلمين ممن يُتعامل معهم على مستوى تبادل المصالح و المنافع، وفي الحديث[1]: «**أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور**

(1) ابن أبي الدنيا، في **قضاء الحوائج**، برقم 36، والطبراني، في **المعجم الأوسط**، 139/6.

تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه دينا أو تطرد عنه جوعا». فأشرف الناس وأقربهم إلى الله من كان أكثر نفعا للناس بما يسديه إليهم من معروف أو إصلاح أو نصيحة وما يقدمه لهم من عون وبذل.

وفي الحديث أيضا أن النبي ﷺ قال: «**من نفَّس عن مؤمن كُربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**»[1].

قال الإمام النووي في شرح الحديث: «وفيه فضل قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما تيسر من علم أو مال أو معاونة أو إشارة بمصلحة أو نصيحة وغير ذلك»[2]. فمفهوم نفع الناس يتسع ليشمل كل ما يحتاج إليه الآخر ويستفيده.

إنه مبدأ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة والباطنة التي تسهم في إسعاد الآخرين وتحقيق أوفى قدر من الهناء لأكبر عدد من الناس، فالإسلام يريد للناس أن يحيوا حياة طيبة، يستقيم أمرها بالعمل الصالح وفعل الخيرات. ولذلك حث على تحقيق النفع للناس وتقديم المساعدة لهم بقدر المستطاع، وشجع على ذلك بحوافز قوية تغري بفعله وتبعث على الإقبال عليه. ويكفي أن يكون على رأسها ابتغاء مرضاة الله تعالى وثوابه يوم القيامة، ففي الحديث: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه**

(1) صحيح مسلم، في **كتاب الذكر والدعاء**، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، برقم 2699، والترمذي، في **كتاب أبواب القراءات**، برقم 2945.

(2) **شرح النووي على صحيح مسلم**، 21/17، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية 1392هـ.

كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كُربة فرَّج الله عنه بها كُربة من كُرُبات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة»[1]. إنه نوع من الإحسان الهادف إلى تحقيق جانب كبير من الألفة والمحبة فقد جاء في الحديث «**المؤمن يألف ويُؤلَف، ولا خير فيمن لا يَألف ولا يُؤلف وخير الناس أنفعهم للناس**»[2]. ولاشك أن حصول الألفة والمحبة بين الناس نتيجة شيوع جلب المصالح ودرء المفاسد، من شأنه أن يسهم في إنماء المجتمع وإسعاد الناس على أكثر من مستوى.

• من البر تعميم النفع اجتماعيا وثقافيا

إن قيمة «نفع الناس» تستند إلى أصول كثيرة تعد من كليات الدين، كما تستند إلى أصول فرعية تتمثل في مجموعة من التشريعات والتوجيهات القرآنية والحديثية المتعلقة بتنظيم حياتنا الدينية والاجتماعية في إطار من السعي إلى نشدان المجتمع الخيري، القائم على تبادل المنافع والمصالح وإنفاق الخير وتعميمه. فمن البر الذي هو أسمى أنواع التعامل تعميم النفع اجتماعيا وثقافيا على أوسع نطاق ليشمل الأخوة الإسلامية والأخوة الإنسانية. فالإنسان البار الصادق في إيمانه لا يرى العبادة إلا مقرونة بالعمل الصالح والخير النافع، لأن أثر العبادة على العابد إنما يظهر جليا في سعيه إلى نفع الناس وقضاء حوائجهم، والبذل من أجل تحقيق سعادتهم جميعا دون تمييز. ولعل مما يغفل الناس عن إدراكه بهذا الصدد ويتعين بيانه وإيضاحه أن مجرد كف الأذى عن الناس

---

(1) صحيح البخاري، في **كتاب المظالم**، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم 2310، ومسلم، في **كتاب البر والصلة والآداب**، باب تحريم الظلم، برقم 2580.

(2) الطبراني، في **الأوسط**، 58/6، والقضاعي، في **مسند الشهاب**، 108/1، والبيهقي، في **شعب الإيمان**، 115/10.

والإحجام عن فعل الشر يعتبر صدقة ينتفع بها الناس ففي الحديث: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[1] وجاء عن أبي ذر الغفاري ﷺ أنه قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن ضعفتُ عن بعض العمل؟ قال «**تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك**» [2] وهذا من شأنه أن يسهم في تعزيز مبادرات التنمية البشرية، الرامية إلى تحسين الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وتطييب الحياة لكثير من المضطرين وكل من توصف أحوالهم اليوم بالهشاشة.

• نفع الناس مسؤولية جماعية

إن الإنفاق بجميع شعبه من أعظم أصول «نفع الناس»، فهو يُمِد مجالات ومواطن الاحتياج بما يضمن استمرار المجتمع المتضامن في أداء وظيفته، بعيدا عن تقلبات الزمان وتغير أحوال الناس، فالإسلام يدعونا إلى الحفاظ على الجماعة وحمايتها في تلاحم أعضائها وتآخيهم، وفي هذا دليل على أن تحقيق النفع للناس لا ينحصر في جوانب الخير التي يقوم بها آحاد الناس من المنفقين كما هو سائد معروف، وإنما تكمن جدواه وثمرته في حصول الأعمال النفعية الجماعية التي تتخذ أحيانا طابعا مؤسساتيا تتضافر من خلالها الجهود الرامية إلى إقامة منافع ذات حجم واسع تسهم في التخفيف من أعباء الدولة وتكاليفها.

---

(1) صحيح البخاري، في **كتاب الإيمان**، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، حديث رقم 10، ومسلم، في **كتاب الإيمان**، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل، برقم 40.

(2) صحيح مسلم، في **كتاب الإيمان**، باب بيان كون الايمان بالله تعالى أفضل الأعمال، حديث رقم 119، وابن حبان، في **كتاب العتق**، باب ذكر البيان بأن خير الرقاب وأفضلها ما كان ثمنها أعلا، برقم 4311.

إن مما يتعين ترغيب الناس فيه توجيه ما يقومون به من نفع عام على مستوى الأعمال الجماعية إلى تشغيل العاطلين والتكفل بالأرامل واليتامى، وبناء مؤسسات الرعاية الاجتماعية، والإسهام في مشاريع التنمية البشرية، وغير ذلك من المبادرات النفعية الهادفة إلى تحقيق ترابط المجتمع وشعوره بالمسؤولية تجاه الآخرين.

إن من العلماء من رأى أن أفضل العبادات وأنفعها ما كان فيه نفع متعد إلى الغير، والنفع المتعدي أفضل من النفع القاصر على فاعل الخير، فمساعدة الناس ماديا ومعنويا، والانشغال بمصالحهم وقضاء حوائجهم أفضل وأبلغ في العمل، ويشهد لهذا حديث: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»[1]. فعمل العابد قاصر على نفسه، أما علم العالِم العامِل فيتعدى إلى الغير. إنه تعاون وترابط بين أفراد المجتمع، ينفع بعضهم بعضا ولا يستغني فيه جزء عن آخر. وبذلك يحيى الجميع الحياة الطيبة، ويستمر النماء والرخاء والنفع العام.

إن القيام بالنفع العام سلوك يعبر عن وعينا جميعا بالمسؤولية المشتركة الرامية إلى تحقيق المنافع وتوثيق عرى التعاون والتراحم، سواء في إطار الأسرة أو الجماعة أو الوطن أو في إطار العلاقات الإنسانية العامة.

• من مقاصد النفع العام وثمراته

إن مقاصد النفع العام وثمراته تتعدد بتعدد مستويات ومجالات حصولها نذكر منها:

---

(1) الدارمي، في **المقدمة**، باب من قال العلم التقوى وخشية الله، برقم 297، والترمذي، في **كتاب العلم**، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم 2686.

- تعزيز الأمن المجتمعي نتيجة ما يتحصل من مبادرات ومشاريع تحقق انتفاع شرائح اجتماعية عديدة، فمن المؤكد أنه إذا ساد التعاون والتراحم بين أبناء المجتمع بما ينطوي عليه ذلك من عطف ورحمة ومحبة وألفة وما يثمره من خير ونفع فإن استتباب الأمن وحصول الاستقرار والسكينة، كل ذلك يظلل ربوع المجتمع، ويقوي علاقات الود والتعاطف بين الناس في مقابل تراجع مستويات الحقد والكراهية نتيجة ملاحظة التفاوتات الاجتماعية؛

- إن نفع الناس عامة يؤثر فيهم بوصفهم أفرادا، ويؤثر في المجتمع كله باعتباره كيانا متماسكا. و لا شك أن الناس إذا علموا في الإنسان رغبته في نفعهم، وسعيه في جلب المنافع وفعل الخيرات من أجلهم أحبوه بالطبع، لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها؛

- إن من شأن دعم أعمال الخير والنفع العام تقويةَ مبادرات التنمية المستدامة، وتعزيز الفرص الاجتماعية التي تثمرها، وهو ما يسهم في بناء الحياة الطيبة المنشودة. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الرعد/17)؛ فكل الأعمال الخيرية والتنموية هي مما ينفع الناس، ويديم عليهم نعمة الحياة ومعناها.

فهرس

❑ **تقديم** 9

❑ **أولا- الدين والتدين** 11

1. الدين كامل والتدين اجتهاد 13
2. المهام النبوية الأربع في التبليغ 20
3. التدين السليم أساس الحياة الطيبة 26
4. وازع القرآن ومهمة العلماء في التبليغ والبيان 32
5. الغاية من الخلق 37
6. شمول العبادة لحياة الإنسان 42
7. العبادات بثمراتها 46
8. الله خلق الدنيا لغايات وأوجب لها الحرمة 51
9. الإنسان والاستخلاف 55
10. وخلق الإنسان ضعيفا 60
11. حسن تدبير ضعف الإنسان 64
12. تعضيد الضعف الإنساني بإعمال وازع القرآن 68
13. الارتباط بالله بالصلاة والذكر والدعاء 74

14. التدين فردا وجماعة 80
15. وازع القرآن ووازع السلطان في ترشيد تدين الفرد والجماعة .. 84
16. ضرورة تضافر وازع القرآن ووازع السلطان لضمان حياة طيبة للجميع 89
17. احترام القانون 94

❑ ثانيا ـ مقتضيات الإيمان 99

18. الإيمان يعطي الحياة معناها 101
19. التوحيد وعلاقته بالحرية 106
20. التزكية وعلاقتها بالتربية على المسئولية 112
21. التفاضل بالتقوى 117
22. الربط بين المعاملات والعبادات 122
23. التعدد البشري والتنوع الثقافي من آيات الله 129
24. المساواة بين المرأة والرجل 135

❑ ثالثا ـ مقتضيات العمل الصالح 141

ـ أ ـ التقوى 143

25. الأمن شرط في إقامة الدين وسلامة التدين 143
26. العدل أهم قيمة تؤهل للحياة الطيبة 149
27. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر 155
28. أداء الأمانات أداء للحقوق 161

29. الكسب الحلال يورث الطمأنينة 167
30. الاقتصاد وحسن التدبير 172
31. الابتعاد عن المهالك من أهم مقاصد الدين 178
32. الترغيب على الزواج 184
33. الدين والتقليل من كلفة الحياة لدى الأفراد والجماعات 188
ـ ب ـ فعل الخيرات 193
34. العطاء الواجب 193
35. العطاء التطوعي 199
36. أخلاق العطاء للمحتاجين 206
37. التعاون والتضامن 211
38. إصلاح ذات البين 217
39. نفع الناس عامة 222